

45

كتابي

اميلي برونتي



مرتفعات ويذرنج

الجزء الثاني

Looloo

www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

لبنان - بيروت
طبعة ٢٠٠٤

محمي مراد



مرتفعات ويذرنج

النص الكامل لقصة إميلي برونتي

الجزء الثاني



Looloo

www.dvd4arab.com

وصل ما انقطع ..

في نهاية الجزء الأول من هذه الترجمة الكاملة لقصة (مرتفعات ويدرنج) تركنا «كاثرين أيرنثو» - زوجة «أدجار لينتون» - راقدة في فراش المرض، تفشى لخامتها «نللى» بذات نفسها، بعد أن اعتصمت بمخدعها وأضربت عن تناول الطعام ثلاثة أيام، على أثر المشادة العنيفة التي نشبت بينها وبين زوجها بسبب .. هيثكليف .. وكانت مقدمات هذه الأزمة بين الزوجين قد بدأت حين اكتشفت كاثرين أن شقيقة زوجها - إيزابيلا - قد وقعت في هوى هيثكليف، فلما حاولت أن تنفرها منه بإظهار عيوبه ومساوئه لها بصراحة، إهانته العذراء الغريرة واتهمتها بالغيرة والانانية .. عما كان من كاثرين إلا أن انتقمت لكرامتها بأن أفشت لهيثكليف السر الذي كان يجهله، سر ندله إيزابيلا في هواه .. وانتهز الوضع الفرصة لعبر الخطة لاستغلال هذا الجوى الصبياني وتتيقنه، بغية مصاهرة غريمه الأرستقراطي «أدجار لينتون» وإذلاله .. وذات يوم عاجباً إيزابيلا في الحديقة غفلها .. ولحته «نللى» غابغت كاثرين بالأمر .. غثارت كاثرين في وجهه وأمسكت في تانييه .. وانتهز أدجار الفرصة - دون أن يقف على سبب المشادة - فامر هيثكليف بالخروج وعدم العودة إلى الدار مرة أخرى ! .. وعلى أثر انصرافه ثارت كاثرين على زوجها واتهمته بالانصاف إلى حديثها مع هيثكليف من وراء

الباب، ثم تظاهرت بالإصابة بنوبة صرع ! .. لكن «نللى» فضحت «تمثيلها»، فانطلقت غاضبة إلى مخدعها حيث اعتصمت به وأضربت عن تناول الطعام ثلاثة أيام .. لكنها في اليوم الثالث اضطرت إلى أن تطلب بعض الطعام .. وحين علمت أن زوجها يقضى وقته في غرفة المكتبة، غير مهال بقطيعتها، صدمها إهماله إياها، وأصابها بشبه نوبة من الهذيان وهواجس الخوف من الموت والأشباح .. ثم راحت تذكر «نللى» ببدء أحداث الأسبوع المشؤم حين اعتصمت بمخدعها، وكيف داهمها قبيل الفجر كابوس مروع خشيت منه على عقلها .. كابوس رأت نفسها فيه وقد عادت سنوات إلى الوراء .. إلى يوم مات أبوها وهي بعد صبية في الثانية عشرة، فاقام أخوها «هندلى» ستاراً بينها وبين لقاء رفيق صباها هيثكليف - الذي كان بالنسبة لها كل حياتها وكيانها ! - الأمر السدى قاست منه الشعور بالبؤس والعذاب .. وصور لها الكابوس كأنها تنام في فراشها القديم بمنزل «مرتفعات ويدرنج» القرائش الشبيه بخزانة ذات فتحات مربعة، من خشب البلوط - وهو الفراش الذي نام فيه مستر لوكونود، مستأجر الدار، في بداية القصة - فلما أفاقَت من الكابوس وجدت نفسها في مخدعها بقصر «ثرشكروس جيرانج» حيث أغفت وهي جالسة على الأرض مستندة إلى رجل المائدة !

والآن تستطيع أن تتابع القراءة من حيث تركنا «كاثرين» تحدث «نللى» من ذلك الكابوس

« .. رأيتنى قد عدت صبية ، وكان أبى قد وورى التراب
 الموت ، وبدأ عذابى ويؤسى من ذلك الفراق الذى فرضه هتلى
 ببنى وبين هيثكليف .. كنت قد تركت وحدى ، للمرة الأولى
 فى حياتى ، فلما أفقت من نعاس مزعج بعد ليلة حافلة بالبكاء
 والنشيج ، رفعت يدى لأزيج بهسا باب الخزانة المزلق ..
 فإذا بها تصطدم بسطح المائدة ! .. وافقت من رؤياى فجأة
 لأجدنى متكئة على بساط أرض مخدعى ! .. وإذا بالأمى
 الماضية تضيق فى لجة بعيدة الغور من اليأس . وليس فى
 وسعى أن أفسر لك لماذا شعرت بالشقاء والتعاسة يحيطان
 بى من كل جانب ، فلا بد أن ذلك كان شعورا وقتيا ، لأننى
 لا أكاد أجد له سببا أو مبررا .. ولكن خيل إلى كان يظننى قد
 انزعمتنى ، وأنا بعد فى الثانية عشرة ، من (المرتفعات) ، ومن
 كل حياتى ورفقتى المبكرة ، ومن كيانى كله ، كما كان لى هيثكليف
 فى ذلك الوقت .. وصيرتني فجأة « وبعثت ، إلى مسز ليتون ،
 سيدة « ثرشكروس جرانج » ، وزوجة رجل غريب .. أنه
 النفسى والتشريد من كل ما كان دنيائى وعالمى .. ألا ليتك
 تتصورين لحظة من الهاوية التى تردت فيها . وبوسعك أن
 تهزى رأسك كما تشائين يا نللى ! ولكنك حقا قد ساعدت على
 عدم استقرارى ! .. كان ينبغي أن تتحدثى إلى أديار . كان
 هذا واجبك حقا .. وأن ترغميه على أن يدعى فى سلام وهدهد
 .. آه ! .. أننى اشتعل بالنيران ! .. ليتنى أكون فى الخلاء
 الآن . ليتنى أعود فتاة صغيرة من جديد ، جريئة ، نصف
 متوحشة ، حرة مطلقة السراح ، أسخر مما يوجه لى من

إهانات ، ولا أجنى منها غضبا كشماتى الآن ! .. لماذا تغيرت
 كل هذا التغير ؟ .. لماذا تندفع الدماء فى عروقى غائرة شائرة
 لمجرد سماع كلمات قلائل ؟ .. أننى واثقة من أننى سوف أعود
 لحالتى الأصلية إذا وجدت نفسى بين الأحرار فوق هذه
 التلال . افتحى النافذة ثانية يا نللى ، ودعها مفتوحة على
 مصراعها . أسمى .. لماذا لا تتحركين ؟

فقلت : « لأننى لا أريد أن تصابى ببرد يقتلك .. »

— بل تعتين أنك لا تريدين أن تهين لى فرصة للحياة ! ..
 ومع ذلك غائى لم أصبح عاجزة عن الحراك بعد .. سوف
 افتحها بنفسى ..

وهبطت من الفراش بسرعة — قبل أن استطيع منعها —
 فاجتازت الحجرة وهى تترنح فى مشيتها ، ففتحت النافذة
 وأطلت منها وقد أحنت جسمها إلى الأمام غير مبالية بالهواء
 المثلج الذى كان يمزق كنفها العاريين كسكين حادة ..
 ورحت أتوسل إليها ، ثم حاولت أن أستخدم القوة فى إرغامها
 على الرجوع عن النافذة : ولكنى سرعان ما تبينت أن الحمى
 قد زادت قوة ، حتى جاوزت كل ما لدى من قوة ! (وقد كانت
 فى الواقع تحت تأثير الحمى ، إذ اقتصت بذلك من أعمالها
 اللاحقة وهذيانها الغريب) .. وكان القمر غائبا عن صفحة
 السماء ، وكل شيء تحتنا يسبح فى لجة من الظلمة الحالكة .
 ولم يكن ثمة أى ضوء ينبعث من أى منزل قريب أو بعيد ، فقد
 أطفئت أضواء المنازل كلها منذ زمن طويلا .

(مرتفعات ويدرنج) فلم يكن يبين منها شيء البتة ، وبرغم ذلك فانها كانت تؤكد انها ترى بريقها ، إذ صاحت في لهفة :

— انظري ..! هذه حجرتي والشمعة مضاءة فيها ،
والاشجار تتأرجح امامها ! .. اما الشمعة الأخرى فهي في
حجرة جوزيف العلوية . ان جوزيف ما زال ساهرا ، اليسى
كذلك ؟ .. إنه ينتظر حتى اعود إلى المنزل ليوصد البوابة .
حسنا ، سوف ينتظر طويلا ..! فهي رحلة شاقة ، والظلم
الكسير لا يستطيع قطعها في سر ! .. ولا بد لنا من المرور
بكنيسة (جيمرتون) لكي نقوم بهذه الرحلة .. لقد طالما
تحدثنا اشباحها معا ، وراهن كل منا الآخر على الوقوف بين
القبور ، ودموع الاشباح للظهور ! .. ولكن هبني راحتك
الآن يا هيتكليف ، فهل تجرؤ على الوقوف هناك ؟ .. لو
انك فعلت فسوف استبتيك معي ، فما كنت لأرقد هناك
وحدي . فلیدفتونی على عمق اثني عشر قدما ، وليقبلوا أحجار
الكنيسة كلها فوق قبري ، فلن استريح حتى التاك معي ..
لن يقر لي قرار قط حتى أفعل !

وتنهلت قليلا ، ثم استطردت وعلى محياها ابتسامة غريبة :
— إنه يفكر في الأمر ، ويفضل لو ذهبت إليه ، بدلا من ان
يأتى إلى .. ابحث عن طريقة لذلك إذن ! .. ولكن بعيسدا
من فناء الكنيسة ! .. يا لك من بطيء مثاقيل ! ولكن هدى
روحك ، فقد كنت دائما تتبعني !

وإذ تبينت عبث مجادلتها ومعارضة اقوالها الجنونية ،
فقد رجحت افكر في وسيلة استطيع الوصول بها إلى شيء
أعطيها به أو الفه حولها « دون أن تنخلي قبضتي عن الإمساك
بها (نيا كنت لآمن لها وادعها وحدها بجوار النافذة الفائرة
فاها) .. وفي تلك اللحظة اجفنت إذ سمعت صرير أكسرة
الباب وهي تدور ، ثم إذا بمستر لينتون يدخل الحجرة ..
فقد كان في المكتبة فلم يبارحها إلا في تلك الساعة ، وبينما
كان يجتاز الردهة سمع حديثا غائرا مضموله ، أو خوله ،
واراد ان يعرف ما يحدث في تلك الساعة المتأخرة .. فما
كدت المح صيحة الدهشة التي تجمت على شفتيه ، إذ
شهد المنظر الذي طالعه ، وجو الحجرة القارس ، حتى هفت
قائلة ، لأحول دون انطلاق تلك الصيحة :

— آواه يا سيدى !.. ان سيدتى المسكينة مريضة ، وقد
تغلبت على ، فلم أعد استطيع تهدئتها البتة .. أرجو أن
تأتى وتقتنعا بالذهاب إلى الفراش . انسى غضبك يا سيدى ،
لأنها من الصلابة بحيث لا يمكن تحويلها عما صهبت عليه !

فصاح وهو يسرع إلينا : « كاثارين مريضة ؟! .. أغلقت
النافذة يا ايلين .. كاثارين .. لماذا ؟ »

وكف عن الكلام بفتة ، إذ كان منظر مسز لينتون المشمت ،
وشحوبها الشديد ، قد أجم لسانه وشله عن النطق ، ولم
يعد قادرا إلا على نقل نظراته إليها وبغى في دهشة وارتباك
.. فتأملت الحديث قائلة :

— لقد ليث هنا كل هذه المدة ، تجتر أحزانها ، لا تذوق طعاما ، ولا تنفس من صدرها مخلوق ، فلم تسمح لأحدا بالدخول عليها إلا الليلة ، ولذلك لم يكن في وسعنا أن نخبرك عن حالتها — إذ كنا أنفسنا نجعلها — ولكن أرجو أن يكون الأمر بسيطا ..

وقد تسمرت بأننى كنت أنطق بهذه العبارات في أوتباك وتلعثم ، فنظر السيد إلى عابسا ، ثم قال في صرامة : « أتريد الأمر بسيطا ، يا ايلين دين ؟ .. سوف يكون عليك أن تفسرى مسلكك إذ كتبت ذلك عنى ، فيما بعد .. »

ثم أخذ زوجته بين ذراعيه ، وراح ينظر إليها في ألم وأسى .. فلم يبد في نظراتها ، في بادئ الأمر ، ما يتم على أنها قد صرفته .. كانت نظراتها الشاردة لا تراه ولا تتبينه . ومع ذلك كانت النبوة الثائرة قد بدأت في الهدوء ، عما أن تحولت ميناها من الظلمة الخارجية الحالكة ، وبدأت تركز انتباهها فيه رويدا رويدا ، حتى عرفت من الذى كان يحولها بذراعيه ، فغالت في انتفاضة غاضبة :

— آه .. هل أليت يا ادجار لينتون ؟ .. انك أحد تلك الأشياء التى يجدها المرء دائما كلما كان في غير حاجة إليها ، وعندما يحتاج إليها لا يجدها قط ! .. واحسب أننا سوف يكون لدينا الكثير من الأحزان الآن — بل أنا واثقة من ذلك — ولكنها لا يمكن أن تحول ببنى وبين مسكنى الضيق هناك ! .. مسكنى ومستقرى وموئل راحتى ، حيث تسدر على أن

أرقد غيه قبل انقضاء الربيع . ولكنه لن يكون بين قبور آل لينتون ، تحت سقف الكنيسة ، وإنما في الهواء الطلق ، فوق الروابي ، لا يعلوه سوى قائم من الحجر ! .. أما أنت فلك أن تذهب حيث يسرك الذهاب ، فلما أن تمضى إليهم أو تاتي إلى !

فغص السيد بريقه وهو يقول : « ماذا فعلت بنفسك يا كاثرين ؟ .. ألم اعد شيئا بالنسبة إليك ؟ وهل تحبين ذلك المنكود هيث .. ؟ »

فصاحت مسر لينتون : « صه ! .. اسكت . لو ذكرت هذا الاسم سوف أنهى المشكلة في الحال ، بوثبة من النافذة ! .. ان ما طلبه الآن قد يكون لك « ولكن روحى سوف تكون فوق قمة ذلك القل قبل أن تضع يدك على ثائبة .. اننى لا أريدك يا ادجار .. بل لم يعد في وسعى ان أريدك ! .. ارجع إلى كتبك ، فكم يسرنى ان لديك ما يسليك ويسرى عنك . أما أنا ، فكل ما كان لك منى ، قد ذهب وولى ! »

فتدخلت قائلة : « ان عقلها يهيم في أفاق مجهولة يا سيدى ، لقد قضت الليلة بأسرها تهذى بكلام لا معنى له .. ولكن دعها تثل تصيبا وأغرا من الراحة ، وقسطا كافيا من العناية ، وسوف تستعيد قواها ومرحها .. يجب أن نحذر ، من الآن فصاعدا ، من إغصابها .. »

فاجاب مستر لينتون : « لمست أريد منك المزيد من النصائح . انك تعرفين طبيعة سيدتك ، ومع ذلك شجعتنى

على مضايقتها ! .. ثم لم تلهي لى مرة واحدة عن حالتها طيلة هذه الأيام الثلاثة ! .. ألا ما أقسى طلبك ! إن شهورا من المرض ما كانت لتحدث بها مثل هذا التغير ! »

نبذت أذراع عن نفسى ، شاعرة بأن من الظلم أن الام بسبب المشاكسات الخبيثة التى يأتيتها شخص آخر غيى ! .. فصحت قائلة : « لقد كنت أعرف ما فى طبيعة مسز لينتون من صلابة رأى وحس السيطرة والتسلط ، ولكنى لم أكن أعرف رغبتك فى تغذية طباعها الحادة الضارية والاستزادة منها ! .. لم أكن أعرف أننى فى سبيل مرضاتها وتذليلها يجب أن أتغاضى مما يفعله مستر هيكليف ! .. لقد أديت وأجبت كخادم أمينه عندما أخبرتك ، وهانذا أتغاضى الأجر اللائق بخادم أمينه ! .. حسنا ، إن ذلك يعلمنى أن أكون أشد حذرا ، عليك فى المرة القادمة أن تجمع معلوماتك بنفسك ! ! »

— فى المرة القادمة التى تأتين لى فيها بقصة جديدة ، سوف تتركين خدمتى يا أيلين دين !

— احسبك لا تريد أن تسمع شيئا عن هذا الأمر بعد الآن يا مستر لينتون ؟ .. إذن فقد نال هيكليف اذنك لمغالطة الأنسة ، وانتهاز كل فرصة يتيحها له غيابك ليأتى ويسمم أنكار السيدة ضدك ؟

وعلى الرغم من حالة الذهول التى كانت فيها كاثارين ، فإن ذهنها كان مرهفا وعلى وعى بحديتها ، إذ هتفت فى حرارة : « آه » لقد لعبت أيلين دور الجاسوس الخائن ! .. ان أيلين

هى عدوى الخفى فى هذا المنزل .. أنت ايتها الساحرة الشيطانية ، إذن فقد كنت تجهين السهام لثرمينا نحن بها ! دعنى .. دعنى ، سوف أجعلها تتحسر على ما فعلته .. سوف أجعلها تلقى جزاء جحودها ! »

وكانت عيناها تومضان ، وتوهجان فى ثورة جنونية ، وراحت تناضل فى سبيل الخلاص من بين ذراعى لينتون .. فلم أحس ميلا إلى البقاء حتى تنفذ وعيدها ! وعزمت على أن أنشد معونة الطبيب ، من تلقاء نفسى وتحت مسئوليتى ، فأسرعت بمغادرة الحجرة ، ثم المنزل كله .. وفيما كنت اجتاز الحديقة إلى الطريق « فى موضع كان سور الحديقة عنده يحمل خطانا مما تعلق فيه أئنة الجياد ، لحقت جسما أبيض اللون يتحرك حركة غير منتظمة ، لا شأن للرياح فى أحداثها .. وعلى الرغم من أننى كنت فى عجلة ، إلا أننى ثلثت ريشا أفحص ذلك الشيء ، حتى لا تخامرنى الهواجس فيها بعد فتش فى خيالى الاقتناع بأن ما رأيته كان عفريتاً من الجان ! .. وكما كانت دهشتى وحرثى عندما اكتشفت ، بطريق اللمس أكثر من الرؤية ، أنه كان كلب مس ايزابيلا الصغير « فأتى » ، ملقاً فى الخطاف من رقبته بمنديل ، وفى الرمق الآخر من حياته ! .. وأسرعت بتخليص الحيوان المسكين ، وأنزلته إلى الحديقة ، وكنت قد رأيته يتبع سيدهته إلى حجرتها بالطابق العلوى عندما أوت إلى غراشها ، فأخذنى العجب مما أتى به إلى الحديقة ، ومن ذلك الشير الذى كان أن يقتله .. وبينما كنت أحل عقدة النيل من حول الخطاف ،

بلغ مسامعي وقع حوافر جواد ينطلق بسرعة كبيرة عن مبعدة
.. ولكن كان لدى من الشواغل التي تملأ تفكيرى . ما جعلنى
لا أغير صوت الجواد اهتماما ، ولو أنه كان صوتا غريبا فى هذا
المكان فى الساعة الثانية من الصباح !

ومن حسن الحظ أن مستر كينيث كان يغادر منزله لزيارة
مريض فى الريف ، عنديا بلغت الشارع الذى يقيم فيه ، فحسنا
أن أسمع روايتى عن مرض كاترين لينتون حتى عدل عن
طريقه وعاد معى فى الحال . وكان رجلا بسيطا صريحا لا
يعرف المداورة ، فلم يخف شكه فى نجاتها من هذه الصدمة
الثانية ، ما لم تكن أكثر خضوعا لتعليماته وأوامره مما بدا
منها فى المرة الأولى ، ثم استطرد يقول :

— اسمعى يا نللى دين .. أنفى لا أستطيع أن أمتنع نفسى
من الاعتقاد بأن هناك سببا خارجيا لما أصابها ، فها هذه
الأحداث التى تمر « بالجرانج » هذه الأيام ؟ .. لقد بلغتنا
أنباء عجيبة هنا ، وفتاة قوية البنية مثل كاترين لا يمكن أن
تقع صريعة المرض بسبب شئ تافه ، كما أن هذا الطراز من
الناس لا يمرضون بسهولة ، ومن العسير أن تصيبهم الحمى
أو غيرها .. فكيف كانت البداية ؟

— سوف يخبرك السيد .. ولكذك تعرف آل إيرنشو
تماما وتعرف حدة طباعهم ، التى بلغت مسيز لينتون غيبا
أعلى مرتبة وبزتهم جميعا . وكل ما يمكننى قوله أن الأمر بدأ
بشجار حاد ، وقد أصيبت بنوبة شديدة بينما كانت تمر
بعاصفة من الغضب والانفعال الشديد ، أو هذه قصتها على

الأقل ، لأنها غرت من الميدان عند احتدام العاصفة وحبست
نفسها فى حجرتها ، ثم رفضت أن تتناول شيئا من الطعام ،
وعذت الآن تتأولها ساعات من الهذيان تارة ، ومن الاستغراق
فيما يشبه الحلم تارة أخرى . وهى تعرف المحيطين بها
ولكن عقلها يمتلئ بقدر عظيم من الأفكار والأوهام .

نقال كينيث متأنلا :

— احسب أن مستر لينتون سوف يأسف كثيرا ؟
— يأسف ؟ .. إن قلبه سوف يتحطم لو أصابها سوء !
.. وأرجو ألا تثير فى نفسه القلق بأكثر من القدر الضرورى !
نقال ريفى : « حسنا ، لقد حذرته .. وعليه أن يترقب
عواقب إهماله لتحذيرى . ألم تنعقد أواصر الود والالفة بينه
وبين مستر هيثكليف أخيرا ؟ »

— إن مستر هيثكليف يكثر من التردد على (الجرانج) ،
وإن كان ذلك يرجع إلى معرفة السيدة له منذ أن كان غلاما
صغيرا ، أكثر من حب السيد لصحبته .. ولكنه فى الوقت
الحاضر قد أعنى من مشقة الزيارة ، بعد أن بدر منه ما يتم
على طيوح مزعوم إلى يد مس لينتون .. ولست اعتقد أن
أحدا سوف يسمح له بزيارة البيت بعد ذلك ثانية ..

والقى الطبيب بسؤاله الثانى ، فقال :

— وهل قابلته مس لينتون بالاستخفاف وعدم الاكتراث ؟
فاجبته فى إحجام من متابعة الحديث فى هذا الموضوع :
— إنها لا تطلعنى على أسرارها ..

— كلا ، غنى غداة مأكرة لا تطلع احدا على سرها ، ولكنيها بلهاء حقا .. غغد سمعت من مصدر يوثق بكلامه انها كانت في الليلة الماضية — ويا لها من ليلة ! — تمشى مع هيثكليف في الحقول الممتدة خلف منزلكم اكثر من ساعتين .. وكان يستحثها ويلح عليها الا تعود إلى المنزل ثانية ، بل ترافقه على ظهر جواده وتفر معه ! .. وقد اخبرني محدثي انها لم تستطع استمهاله إلا بعد ان عاهدته بكلمة الشرف على ان تستعد لذلك في اول لقاء لهما بعد ذلك . اما متى يكون ذلك ، فان محدثي لم يسمعها يحددان موعدا .. ولكن عليك ان تنذري مستر لينتون حتى يفتح عينيه جيدا !

وملأني هذه الأنباء بمخاوف جديدة ، فسبقت كينيث ، واسرعت أعدو عائدة إلى الدار . وكان الكلب الصغير ما زال ينبح في الحديقة ، فتخللت لحظة ريثما افتح له البوابة ، ولكنه بدلا من الاتجاه نحو باب المنزل انطلق يمدو هنا وهناك ويتشمم العشب ، وكان على وشك ان يهرب إلى الطريق لو لم أمسك به وأحمله معي إلى الداخل .. وقد تحققت شكوكي عندما صعدت إلى حجرة ايزابيلا ، إذ وجدتني خالية ! .. ولو انني ذهبت إليها منذ ساعات قليلة ، فربما كان مرض مسر لينتون قد منعه من الإقدام على هذه الخطوة الطائشة ، ولكن ما الذي يمكن عمله الآن ؟ .. كان هناك احتمال طفيف في إدراكهما إذا اقتنى أثرهما في الحال ، ولكني لم أكن أستطيع تتبعهما بنفسى ، أو أجروا على إيقاظ العائلة جميعا ، وإشاعة الفوضى والاضطراب في المنزل كله .. وكذلك لم يكن

في وسعى أن أبوح بالأمر للسيد الذي كانت تكتبته الحالية تشغل كل أفكاره ، ولم يبق في قلبه متسع لحزن جديد .. فلم أجد خيرا من أن أمسك لساني وأدع الأمور تجري في مجراها . وإذا كان كينيث قد وصل ، رافقته إلى حجرة السيدة — وقد انقلبت سحنتي — لأعلن مقدمه . وكانت كاترين وقتئذ تنام نوما مضطربا ، إذ كان زوجها قد اغلح في تفتتها ، وتخفيف ثائرة نوبتها ، ووقف عند طرف الوسادة يربب كل تبدل يطرا على أساريرها التي تعبر عن ألم شديد ..

وبعد أن فحص الطبيب الحالة بنفسه ، أعرب عن أمل في الوصول إلى نتيجة طيبة إذا استطعنا ان نحيطها دواجا بجو من الهدوء والسكينة . وقد أغضى إلى بان الخطر الداهم لم يكن في موتها ، بقدر ما كان في إصابتها بخلل دائم في قواها العقلية !

ولم يقض لي جفن في تلك الليلة ، وكذلك مستر لينتون .. بل لم نذهب إلى غرشنا أو نحاول النوم قط . حتى الخدم استيقظوا قبل موعدهم المألوف بكثير ، وراحوا يتحركون في المنزل بخطى خفيفة مسترقة ، ويتبادلون الكلام همسا كلما مر بعضهم ببعض خلال قيامهم بمهامهم . كان كل من في الدار مستيقظا يقوم بعمله ، إلا مس ايزابيلا ، فراحوا يتيامسون عن نومها العميق ويعجبون منه ! .. بل لقد سال أخوها عما إذا كانت قد استيقظت من النوم ، وبدا يتلفها على وجودها ، وقد ساء أنها لم تبد شيئا من القلق على زوجة أخيها .. وكنت ارتعد خشية أن يبعث بي لاستدعائها ، ولكن حدث ما كملت

مشقة أن أكون أول من يعلن خبر قرارها : فان إحدى الخادمت
— وهى فتاة طائشة كانت قد ذهبت إلى (جيمرتون) فى الصباح
الباكر لتحضر شيئا من البلدة — أسرعترتقى الدرج ، مبهورة
الأنفاس ، فافرة الفم ، واندفعت إلى داخل الحجرة ، صائحة :
— آه .. رحماك يا رب .. ماذا سيحل بنا بعد ذلك ؟ ..
سيدي .. سيدي .. إن سيدتنا الصغيرة ..

فبادرتها زاجرة : « وقد اشتد بى الغضب من ضجيجها :
— صه .. كفى عن هذه الجلبة !

وقال مستر لينتون : « أخفضى صوتك يا ماري .. مسالما
هناك ؟ .. وما الذى ألم بسيدتك الصغيرة ؟ »

— لقد ذهبت .. ذهبت ! .. وصديقك هينكليف هو الذى
فر بها !

فصاح ادجار ذاهلا ، وهو ينهض من مقعده فى انفعال
شديد :

— هذا ليس صحيحا ! .. بل لا يمكن أن يحدث قط ! ..
ما الذى أنبت هذه الفكرة فى رأسك ؟ .. وانت يا ايلين دين ،
اذهبي وابحثي عنها . هذا امر لا يمكن تصديقه .. بل لا
يمكن أن يحدث !

وكان وهو يقول ذلك ، قد سار بالخادم العجول نحو
الباب ، وعاد يسألها أن تبين له الأسباب التى جعلها تؤكد
هذا الفرار .. فغمضت تقول متلعثمة : « لماذا ؟ .. لقد

التقيت فى الطريق بالغلام الذى يحضر لنا اللبن ، فسألنى عما
إذا كانت المتاعب قد ثارت فى (الجرانج) ، وحسبته يقتصد
مرض السيدة ، فأجبتة بالإيجاب ، وعندئذ قال : « افلنكم
أرسلتم من يقتنى أثرهما ؟ » فحلفت فيه فى دهشة أدرك
منها أننى لا أعرف شيئا عن الحقيقة ، وذكر لى كيف أن
سيدا وسيدة توفقا عند حائوث الحداد ، على بعد ميلين من
(جيمرتون) ، ليصلحا حدوة جوادهما ، بعد منتصف الليل
بقليل .. وكيف نهضت ابنة الحداد لتستطلع امرهما خفية ،
فعرفتها على الفور .. ولاحظت أن الرجل — وكان هينكليف
بلا ريب ، فان أحدا لا يخطئ معرفته — قد دس فى يد ابنيها
جنياها ذهبيا اجرا له على عمله . وكانت السيدة تلف ياقة
المعطف حول وجهها ، ولكنها طلبت جرعة من الماء ، وبينما
كانت ترشفها ، سقطت ياقة المعطف فرأت الفتاة وجهها جليا
وعرفتسا . وكان هينكليف يمسك عنان الجواد بكلتا يديه
وقد انطلقا به فى سرعة عظيمة ، بالقدر الذى تسمح به وعورة
الطريق ، وهما يتنكبان القرية فى سيرهما . ولم ثقل الفتاة
شيئا لأبيها ، ولكنها نشرت الخبر فى (جيمرتون) كلها هذا
الصباح !

وأسرعت انقصى الأمر فى حجرة ايزابيلا ، من الناحية
الشكلية ، ثم عنت لأويد رواية الخادم . وكان مستر لينتون
قد رجع إلى مقعده بجوار الفراش ، فلما أحس بعودتى ،
رفع نظريه نحوى ، ثم خفضها ثانية ، بعد أن قرأ فى وجهي

معنى ما علاه من وجوم ، واخذ إلى الصمت . غلم يصدر
أمرا أو ينهس بكلمة واحدة . . غسالته قاتلة :

— الا نحاول اتخاذ أية تدابير للحاق بها وإعادتها إلى
المنزل ؟ وكيف ترى ان تفعل ذلك ؟

فاجابنى السيد : « لقد ذهبت بملء رغبتي وأرادتيا . ومن
حقها ان تفعل ذلك ما دام يسرها . . فلا تشغلنى بأمرها
بعد ذلك قط ، لأنها من الآن تعد شقيقتى اسما فحسب . .
لا لأفنى أثبرا منها ، بل لأنها هى التى تفكرت فى ويرى
منى . . »

وكان ذلك كل ما قاله فى هذا الموضوع . غلم يتخذ سبيلا
واحدا للبحث عنها والتقصى عما تم من أمرها ؛ ولم يذكرها
على لسانه فى أى وقت ، إلا عندما امرنى بأن أرسل إليها فى
منزلها الجديد ، أينما كان مقره — عندها يبلغنى خبر عنه — كى
ما لها فى الدار من متاع . .

الفصل الثالث عشر

ظل الهاربان غائبين زهاء شهرين دون أن نسمع عنهما
شيئا . وفى خلال هذين الشهرين كانت ميسز لينتون مريسة
لأموا صدمة — مما يسمى بالحصى المخية — حتى قهرتها
وتغلبت عليها . وما من أم رؤوم كان يمكن ان ترعى طفلها
الوحيد وتعرضه بتفان وإخلاص أكثر مما كان ادجار يرعاها
وبمرضيا . . كان يسهر عليها الليل والنهار ، ويحتمل فى
صبر لا ينضب معينه جميع المخايقات والمتاعب التى يمكن
ان تنشأ عن اعصاب سريعة التهيج وعقل مرتج . . وكانت
فرحته وشكرانه ، عندها اعلن الطبيب زوال الخطر عنها ،
لا يعرفان حدودا لاثملاقتها ، برغم ما لا حظله كينيث من ان
التى انقذها ادجار من القبر سوف تجزى رعايته وعنايته
بان تكون مصدر قلق دائم له فى المستقبل . . والواقع انه
كان يضحى بصحته وقوته فى سبيل المحافظة على حطام
بشرى ، لا أكثر ولا أقل . كان يقضى الساعة تلو الساعة
جالسا إلى جانبها يرقب صحتها البدنية وهى مرتد إليها
تدرجيا ، ويعمل النفس بالامانى الجياشة — الخيالية — فى
أن عقلها سوف يعود إلى توازنه الصحيح ايضا ، وأنه لن
تطبخ حتى ترجع إلى حالتها الطبيعية التى كانت عليها من
قبل . .

وكانت أول مرة غادرت فيها حجرتهما ، بعد ذلك المرض
الطويل ، فى بداية شهر مارس القالى . وكان مسافر لينتون

قد وضع فوق وسادتها ، قبل ان تستيقظ في الصباح ، حنطة من زهور الاسحوان الذهبية ، فلما أفاقنا من نومهما لمحتبا عيناها - اللتان ظلقتا طويلا لا تعرفان طريق السرور - غنلقنا في فرح وابتهاج ، وراحت تضم الزهور معا ، ههنا :

- هذه بواكير الزهور في (المرتفعات) .. وهي تذكرني بالنفسمة العذبة ، والشمس الساطعة الدافئة ، والثلوج الذائبة .. قل لي يا ادم ، ألا تهب نسائم الجنوب الآن ؟ .. وهل اختفت الثلوج أم كانت ؟

- لقد اختفت الثلوج تماما من هنا يا عزيزتي ، ولست أرى على طول تلال البراري إلا بقعتين بيضاوين .. كما ان السماء زرقاء صافية ، والقناير تصدح بأنغامها الشجية ، والجدول والنهيرات ملأى بالماء حتى حافتها .. لقد كنت في مثل هذا الوقت من ربيع العام الماضي يا كاثرين ، اتوق إلى وجودك تحت سقف هذا البيت ، ولكني الآن أود لو أنك كنت فوق هذه التلال ، فان الهواء يهب عليا جيلا عذبا . حتى لأحس بأنه خليق بأن يشفيك تماما ..

فأقلت المريضة : « لن أذهب إلى هناك قط إلا مرة واحدة أخرى .. وفي تلك المرة سوف تتركني هناك ، وسوف أبقى بها أبدا . وفي الربيع القادم سوف نتوق ثانية لأن تجدني تحت سقف هذا البيت ، وسوف تنظر إلى الوراء وترى أنك كنت سعيدا اليوم ! »



غنلقنا في فرح وابتهاج « وراحت تضم الزهور معا ، ههنا :
- هذه بواكير الزهور في (المرتفعات) ..

فقمهرها لينتون بفيض من الملاحظات الرقيقة - وحاول أن يبهجها بكلمات الحب والحنان ، ولكنها راحت تنظر إلى الزهور ساهمة ، وما لبثت أن تركت قطرات الدمع تتجمع على أهدابها ثم تنساب فوق وجنتيها . لا تكف ولا تنفس .. وأدركنا جميعا أنها قد تحسنت حقا . وإن اعتكافها الطويل في مكان واحد هو السبب في ذلك القنوط الذي يستبد بها . والذي قد يمارسها لو بدلت النظر الذي يحيط بها .. وأمر السيد بأن أشعل نارا في حجرة الجلوس التي ظلت ميجورة أسابيع عدة ، وأن أضغ مقعدا مريحا في أشعة الشمس بجوار النافذة ، ثم أحضرها من الطابع الملوى .. نجالت طويلا تستمتع بالدفع الجبيل ، وقد انتعشت كثيرا كما توقنا .. من منظر الأشياء المحيطة بها . نهى وإن كانت بالومة لديها ، إلا أنها لا تقترن في ذهنها بلك الذكريات المروعة لحجرة مرضها البغيضة .. فلما حل المساء ، كانت تبدو منهوكة القوى إلى حد كبير ، ومع ذلك لم تفلح التوسلات أو وسائل الاقتناع في إغرائها على العودة إلى حجرتها . فاضطرت إلى اعداد أريكة حجرة الجلوس لتتخذ منها فراشا لقادها ريثما يمكن اعداد حجرة أخرى لها .. وقد أعدنا لها هذه الحجرة - التي ترقد أنت فيها الآن يا مستر لوكونود - حتى نجنيها مشقة الصعود والهبوط إلى الطابق العلوى ، فهي - كما تعلم - في نفس الطابق الذي تقع فيه حجرة الجلوس .. وسرعان ما استمادت بعض قوتها بحيث أمكنها الانتقال من إحداها للأخرى مستندة إلى ذراع ادمجار . آه ، لقد ظننت وقتئذ أنها سوف تشفى حقا ، ما دامت تلقى

كل هذه الرعاية والعناية . وكان ثمة سببان لأن فرجو ذلك ونتمناه ، غان على حياتها تنوقت حياة أخرى ، كما أننا كنا نداعب الأمل في أنه لن تضى فترة وجيزة حتى نقر عينا مستر لينتون وبينيچ قلبه بمولد وريث له يقى أملاكه من أن تقع في قبضة شخص غريب ..

ولا بد لى من القول بأن ايزابيلا أرسلت إلى أخيها . بعد نحو ستة أسابيع من رحيلها ، خطابا موجزا تعلنه فيه بزواجها من هينكليف .. وكان خطابا جانفا باردا ، ولكنها ذيلته ، وبالقلم الرصاص . باعتذار غامض ، ورجاء رقيق بأن يذكرها ، وأن يحسن عنها . إذ كان تصرغها قد أغضبته ، مؤكدة أنها لم تستطع دفع الأمر وقتئذ ، وأنها الآن بعد أن تم كل شيء ، لا تلك القوة على نقض ما أبرمته . واعتقد أن لينتون لم يرد على هذا الخطاب ، فلم يكدمر عليه أسبوعان حتى تلقت خطابا طويلا رأيت من العجب صدوره من قلم عروس فرشت لتوها من شهر العسل .. وسوف اتلو عليك هذا الخطاب . لأننى ما زلت محتفظة به ، إذ أن آثار الموتى عزيزة غالية ، إذا كانوا في حياتهم اعزاء محبوبين :

« عزيزتى ايلين ..

« وصلت في الليلة الماضية إلى (مرتفعات ويذرنيج) ، فسمعت - للمرة الأولى - أن كاثرين كانت ، وما زالت ، تعاني مرضا خطيرا . وأحسب أنه ما ينبغي لى أن أكتب إليها ، كما أن أخى لها أن يكون شديد الغضب منى .

على ، بحيث لم يرد على خطابي إليه . . ومع ذلك فلا بد لي من أن أكتب إلى شخص ما ، وليس أملي من أكتب إليه سواك . . أخبرني أذكار أنني أهدب الدنيا بأنسرها في سبيل أن أرى وجهه ثانية ، وأن قلبي عاد إلى (شرشروس جرانج) بعد أن غادرته بأربع وعشرين ساعة ، بل أنه هناك الآن ، مليئاً بالمشاعر الحارة نحوه ونحو كاثرين . . ومع ذلك فليس في مقدوري أن الحق به (وقد وضعت خطاً تحت هذه العبارة لتؤكداه) ، فلا حاجة بهما لأن يتوقعا عودتي - وليستنتجا من ذلك ما يشاءان ، ولكن حذار أن يعزوا ذلك إلى خور في أراقتي أو مقور في عاطفتي . .

« هذا ما أود أن تقوله لآخي ، أما باقي الخطاب فلك وحك . واد أن ألقى عليك سؤالين ، أولهما هو : كيف احتلت على الاحتفاظ بالعواطف العادية للطبيعة البشريّة عندما كنت تقيم هنا ؟ . . فأنني لا أتبين أية مشاعر يمكن أن يشاطرنى فيها أولئك الذين يحيطون بي !

« أما السؤال الثاني ، فأنني أهتم به اهتماماً عظيماً . وهما هو : هو مستر هيكليف إنسان من البشر ؟ . . وإن كان إنساناً فهل هو مجنون ؟ . . وإذا لم يكن ، فبيل هو شيطان ؟ . . أنني لن أخبرك بالأسباب التي تجعلني أوجه إليك هذا السؤال ، ولكنني أتوسل إليك أن تشرح لي - إذا استطعت - حقيقة ذلك المخلوق الذي تزوجته . أعني عندما تحضرين لرؤيتي ، ويجب أن تحضري مريعاً يا أيلين ، لا تكتبي لي ، ولكن تعالى « ولينك تحضرين لي شيئاً من أذكار . .

« واسمعي الآن كيف استقبلت في مغزلي الجديد ، الذي أدخل في روعي أن (المرتفعات) سوف تكونه . ولست أذكر هذه الأمور التي من قبيل نقص وسائل الراحة الخارجية ، إلا لتسلية نفسي . . فأننا لا تشغل أفكارنا البنية إلا في اللحظة التي أشعر فيها بالحاجة إليها . وأنني لخليفة بأن أرقص طرباً وأضحك بلء قلبي لو أنني وجدت هذا النقص هو كل ما أعانيه من شقاء « وأن ما عدا ذلك ليس إلا حلماً شيطانياً رهيباً !

« كانت الشمس تقرب وراء (الجرانج) عندما استدرنا نحو البراري « وكانت الساعة وقتئذ ، فيها اعتقد ، قد بلغت السادسة . . فتوقف رفيقي ما يقرب من نصف الساعة ليفتش البستان ، والحدائق ، بل والمنزل نفسه ، بقدر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وهكذا كان الظلام قد أرخى سدوله عندما ترجلنا عن جوادينا في الفناء المرصوف « للمرتفعات » فلم يلبث أن خرج زميلك السابق الشيخ ، جوزيف ، ليستقبلنا على ضوء الشمعة الخافتة . ولقد فعل ذلك في بشاشة ولطف بضائفان إلى سمعته الطيبة المعروفة . . فقد كان أول ما فعله هو أن رفع مشعله أمام وجهي مباشرة ، وراح يحملني غيه بعينين تضيقان وبفيضان حباً ولؤماً ، ثم قلب مشقه السفلى ، وأشاح بوجهه عني . وبعد ذلك قاد الجوادين إلى الحظيرة ، وعاد ليوصد البوابة الخارجية بالسلاسل والأقفال ، كأننا نعيش في إحدى القلاع القديمة !

« وبقي هيكليف ليتحدث إليّ ، أما أنا فقد دخلت إلى المطبخ ، ووجدته قدراً مشوشاً لا تقام عليه ولا ترتيب .

واحسب انك لو رأيته الآن لما عرفته . فقد تغير كثيرا عما كان عليه عندما كان معهودا به إليك . وكان يتف إلى جوار الموقد غلام زرى الهيئة ، قوى البنية ، قذر الشباب ، يشبه كثيرين في عينيها وفيها ، فقلت في نفسي : انه ابن أخ زوجة دجار . ومن ثم فهو ابن أخيه حكما ، وبالتالي غائه بعد ابن أخى على نحو أو آخر . وينبغي لى أن أصافحه ، بل ينبغي لى - نعم - أن أقبله . . فمن الصواب أن أنشىء معه تافها طيبا منذ البداية . .

« اقتربت منه وحاولت أن اتناول يده المكتنزة قائلا :

— كيف حالك يا عزيزى ؟

« فاجاب في تمتعة لم افهم منها شيئا . وعندئذ كانت محاولتى الثانية للحديث معه :

— هل سنكون أصدقاء يا هيرتون ؟

« مكان جزائى على هذا الاصرار في الحديث معه . ان اطلق من فيه سبائيا قبيحا ، ونوعدى بأن يطلق (ثروتر) في أثرى إذا لم « أره عرض اكتافى » . بل لقد أبقت كلبا ضخما ضاريا من وكره في أحد الأركان ، وراح ييمس إليه قائلا : « حيا ياثروتر . . عليها يا ولد ! » . ثم تحول نصوى يسألنى في غطرسة . « والآن . . هل تذهبين لحال سبيلك ؟ »

« فدفعنى حب الحياة إلى الامتنال لأمره . وخطوت فوق العتبة إلى الخارج لأنتظر عودة الآخرين فأدخل معيهم . ولكن مستر هيثكليف لم يظهر في أى مكان ، أما جيسوزيف ،

الذى ذهبت إليه في الحظيرة ورجوته أن يصحبنى إلى الداخل ، فقد راح يخلق في وجهى ويغمغم بكلام لا أسمعه ، ثم شمخ بآنفه وقال : « مهلا ، مهلا . هل سمع إنسان تقى قط بشىء ، كيدا ؟ . . ما هذا الكلام الذى تمضغيته وتتشددقين به . . وكيف يمكننى أن افهم ما تقولين ؟ » . . تظننته مصابيا بالمصمم ، وإن كانت خشونته ومظانلته قد اثارت اشمئزازى البالغ ، وصححت قائلة : « لقد كنت أرجوك أن تحضر معى إلى داخل المنزل . . »

— لا تطلبى منى شيئا كهذا . . فلى عمل آخر اقوم به !

« وعاد يستأنف عمله ، وهو يحرك في الوقت نفسه مسفحتى مصباحه . متأملا في ازدياء شديد ثوبى ووجهى . اما الاول فكان بالغ الأناقة والجمال ، وأما الثانى فأتى واثقة من انه كان يحمل من الحزن ما كان يوده ويشقهيه ! . . فسرت في الفناء حول المنزل . وولجت كوة صغيرة ، وجدت نفسى بعدها أمام باب مغلق أبحت لنفسى أن اطرقه راجية أن اجد أمامى خادما آخر أكثر أدبا . وما لبث الباب أن فتح بعد فترة وجيزة ، ووقف فيه رجل طويل القامة شديد التحول ، بغير رباط للعنق ، فضلا عن رثانة الثياب التى يرتديها ، وكانت أساريره مخفية تحت كتل من الشعر المشعث الذى يملأ وجهه ويتدلى حتى يصل إلى كتفيه . وكانت عيناه - هو الآخر - تشبه عيني كاترين ، على نحو مخيف ، وإن تجردتا من جسامل شينيا . . فابتدرنى في عبوس وصرامة :

اميلي بروننى

١٤١

الزيارة وأنا بعد غداة صغيرة ، فقد انقلب بريقتها إلى شتامة كئيبة بسبب ما علاها من غدارة وتراب ، شأنها في ذلك شأن البلاط !

« وسالت هتلى ايرنشو عما إذا كان يجدر بى أن ادعو الوصفة لترشدنى إلى إحدى حجرات النوم ، ولكنه لم يتعطف على بجواب ! .. كان يذرع الحجرة ذهابا وحيثا ، واضعا يديه في جيوبه ، وقد بدا عليه انه نسي وجودى تماما . كان من الجلى أن شرود ذهنه قد بلغ من العمق والاستغراق ، كما كان مظهره يتم على عداء للبشر جميعا ، ما جعلنى أحجم عن محاولة إزعاجه مرة أخرى .

« ولا أخالك تدهشين يا ايلين مما اعترانى من شعور بالكآبة والاسى . وأنا جالسة فيها هو أسوأ من الوحدة ، في تلك الحجرة غير المضيافة ، أفكر في أنه على بعد أربعة أميال نحسب يقع منزلى المحبوب البويج ، الذى يضم كل من أحبهم على وجه الأرض . وأن المحيط الأطلسى قد يكون هو الذى يغرق بيننا ، بدلا من هذه الأميال الأربعة التى يستحيل على اجتيازها . ورحلت أسائل نفسى أين اذهب لأنال قسسطا من الراحة ؟ .. وكان حزنى ، الذى غلب كل حزن بجانبه — وأرجو ألا تخبرى بذلك أدمجار أو كاثرين — ينشأ من يأسى من العثور على شخص واحد يستطيع ، أو يود ، أن يكون طيفى ضد هيكليف ! .. لقد كنت أنشد الملجأ والمأوى في المرتفعات ويزنيج ، في شيء من الشرور والارتباك ، لأن ذلك الترتيب كان خليقا بأن يؤمننى من العيش معه على انفراد .

— ما شأنك هنا ؟ .. ومن أنت ؟

— لقد رأيتنى من قبل يا سيدي ، وكان اسمى وقتئذ ايزابيلا لينتون . غير أننى تزوجت من مستر هيكليف أخيرا ، فاحضرنى إلى هنا ، بإذنك طبعاً !

« فسألنى ، وعيناه تقطعان شررا كذئب جائع : « هل عاد إذن ؟ »

— نعم .. لقد عدنا للتو ، ولكنه تركنى بجوار باب المطبخ . وعندما أردت الدخول ، كان ابنك الصغير يقف حارسا للمكان ، واستطاع بمعونة كلب من نوع البولودج أن يخيفنى حتى وليت هاربة ..

« فزجر مضيقى الجديد ، قائلا : « لقد احسن الوعد الجهنمى صنعا بالمحافظة على كلمته ! .. ثم راح يخلق في الظلام خلفى ، مؤملا أن يتبين هيكليف ، وما لبث أن انطلق يغمغم طويلا بأقذع الفاظ السباب ، والوعيد بما كان سيفعله لو أن الشيطان « خدعه ، وأخلف وعده . فلم يعد !

« وتدمت على محاولتى الدخول من هذا المدخل الثانى . وكنت أكاد أميل إلى الفرار قبل أن يفرغ من سبابه ، ولكن قبل أن أستطيع تنفيذ تلك الفية ، أمرنى بالدخول : ثم أوصد الباب خلفى بعد أن أغلقه . وكانت بالحجرة نار عظيمة مشبوبة ، وكان ذلك كل ما يضىء تلك الحجرة القسيحة . التى اكتسى بلاطها الأبيض لونا رماديا موحدا ! .. أما الأطباق اللامعة البراقة التى كانت تجتذب انظارى عندما كنت أحضر

ولكنه - واسفاه ! - كان يعرف الناس الذين سوف نعيش بينهم حق المعرفة ، فكان لا يخشى غزولهم وقدخلهم ..

« وقضيت وقتا طويلا اليما جالسة أفكر .. ونفت الساعة الثامنة ، ثم التاسعة ، ومع ذلك كان رغبتي لا يزال يروح ويغدو من أقصى الحجرة إلى أقصاها ، وقد أحنى رأسه فوق صدره ، واستغرق في صمت موحش ، لا تقطعه إلا همهمة خافتة ، أو تنهد مريع يفلت من بين شفتيه بين وقت وآخر .. وكنت أرهف سمعي عسى أن أتبين صوت امرأة في الدار .. وأملا هذا الوقت الطويل بالأحزان الضارية .. والتكوين المروع عما ينتظرني من مستقبل مشئوم .. وباللبث أن عجزت من كثرتها « فأنطلقت من بين شفتي في نحيب ونداء لم أستطع قمعهما .. ولم أشعر بارتفاع صوتي إلا عندما تمهل ابرنشو في مشيته الرصينة أمامي ، وراح يحلق في وجهي في دهشة من برأني لأول مرة ، فانتفرت غرصة استعادت شعوره وانتباهه ، وصحت :

- إنني متعبة من سفرى الطويل وأريد الذهاب إلى الفراش .. فابن الوصيعة ، أو أية خادم أخرى ؟ .. أرشدني إليها يا سيدي ما دامت لا تريد أن تحضر إلى !

« فأجابني : « لا توجد هنا وصيفات أو خاديات .. وعليك أن تعنى بنفسك ! » .. وعندئذ رحت أنتحب في أنفي ، وقد أخرجني التعب واليؤس عن وقاري ، وقلت : « ولكن إن ينبغي أن أنام إذن ؟ »

- سوف يريك جوزيف حجرة هيثكليف .. افتح هذا الباب ، فتجديه هناك .

« فلما هممت بأن أطيعه ، أمسك بي فجأة ، واستطرد يقول في أغرب صوت سمعته : « كوني فتاة طيبة ، وأوصدي باب الحجرة بالمفتاح ثم ضعي المزاليج وراءه . إياك أن تغفل ذلك ! »

« ولم استبغ فكرة حبس نفسي مع هيثكليف في حجرة واحدة بمحض رغبتي ، فقلت : « حسنا .. ولكن لماذا يا مستر ابرنشو ؟ » .. فأخرج من جيب صدره مسدسا عجيب التكوين ، إذ كانت تتصل بماسورته سكين ذات حدين مرهفين ، يحرکہا لولب خفي ، ثم قال :

- انظري .. إن هذه شديدة الإغراء لرجل يائس ! .. اليس كذلك ؟ .. انني لا أستطيع أن أمتنع نفسي من الصعود إلى الطابق العلوي كل ليلة ، وهذه في يدي ، فأحاول فتح باب حجرته .. فلو وجدت الباب مفتوحا مرة ، فقد انتهى أمره ! .. انني أفعل ذلك دوما ، حتى ولو كنت في اللحظة السابقة مباشرة أفكر في مئات الأسباب الكفيلة بأن أحجم عن هذه المحاولة ! .. وما من ريب في أن شيطاننا خبيثا لا يفتأ يستحثني على إحباط خططي ومشاريعي ، بتحريضي على قتله ! .. وانك لتفاضلين هذا الشيطان عينا معها طال بك المدى ، فعنفهما حين الوقت ، فإن كل ملائكة السماء لن تستطيع إنقاذه !

« ورحت ارمى السلاح فى غفول وإيمعان . وقد طرات على ذهنى فكرة بشعة نظيمة : فكم أكون قوية حصينة لو استطعت أن أحرز مثل هذه الأداة ! .. وأخذتيا من يده ، ورحت أمر بأصابعى على التوصل المرهف : فبستت عليه الدهشة من ذلك التعبير الذى ارتسم على وجهى لحظة خاطفة . لم يكن مزعا ، وإنما كان جشعا وتلهفا ! .. فأسرع باختطاف المسدس من يدى ، فى حرص الشحيح . وأرجع السكين إلى مكانها ، ثم أعاده إلى مخبئة ، قائلا : « اننى لا أبالى أن تخبريه ، فدعيه يأخذ حذره ، وأسهرى على حمايته ! .. وأرى أنك تعرفين سوء ما بيننا من صلات . فإن الخطر الذى يتهده لم يفاجئك ولم يرعك ! »

« فسألته : « ما الذى فعله هيكليف معك . وبماذا أساء إليك » حتى تنطوى له على هذا الحقد المروع ؟ .. ألا يكون أكثر حكمة وتعقلا أن تأمره بمغادرة الدار ؟ »

« مهدر أيرنشو بصوت كالرعد القاصف : « كلا .. وإذا اقترح أن يبارتنى ، فسوف يغدو جثة هامدة . ولو أنك اغريته على هذه المحاولة ، فسوف نصيحين قاتلة ! .. حل قضى على أن أفقد كل شيء ، دون أن تكون لدى الفرصة لاستعادته ؟ .. وهل قضى على هيرتون أن يعيش شحاذا ؟ آه ، يا للجنة ! .. أقسم اننى سوف أستعيد كل شيء ، وسوف آخذ ماله وذهبه أيضا . ثم بعد ذلك دمه ! .. أما روحه فستكون من نصيب الجحيم ! .. وسوف يزداد لهاها سعيرا ، عشرة أضعاف ، عندما يحل بها هذا الخيف ! »

« .. ولقد سبق لك أن اطلعتنى ، يا إيلين ، على طباغ سيدك السابق . ومن الجلى أنه على حافة الجنون ، أو أنه كان كذلك ليلة الأمس على الأقل . وقد اقشعر بدنى من البقاء قريبة منه . ورأيت أن شراسة الخادم الوقح تعد سارة لى نسبيا . وكان قد عاود سيره المموم ، فذهبت نحو الباب ، ورفعت المزلاج ، ثم فررت إلى المطبخ . فرأيت جوزيف منحنيا فوق الموقد ، يمعن النظر فى قدر كبيرة كانت تتأرجح فوقه ، بينما كان على المقعد بجواره قصصمة خشبية ملأى بدقيق الشوفان . وكانت محتويات القدر قد بردت تماما ، فتحول إلى القصة وهو يهيم بدس يده فيها . وحدثت أنه ربما كان يعد لنا العشاء ، وإذا كنت شديدة الجوع ، فقد عزمت على أن يكون ذلك الطعام مما أستسيغ تناوله . .. وهكذا صحت به ، وأنا أبعد القصعة عن تناول يده :

— سوف أعد ، أنا ، هذا الثريد ..

« ومضيت أنزع قبعتى وثوب الركوب الذى كنت أرتديه » واستطردت قائلة : « لقد ائثار على مستر أيرنشو أن أعنى بنفسى ، وسوف أفعل .. فلن أقوم بخور السيدة بينكم ، حتى لا أموت جوعا ! »

« فجلس جوزيف على مقعد بعيد ، وراح يربت على جواربه المضلعة من ركبته حتى عقبه ، وهو يغتم قائلا : « لعل هناك أوامر جديدة بعد ذلك ! .. وإذا قدر لى أن أجد سيدة فوق رأسى ، بعد أن اعتدت أخيرا خديعة سيدون ، فليس الراحنة

والهدوء السلام ! .. اننى ما فكرت قط في أن أرى يومها أضطر
فيه إلى ترك المنزل القديم ، ولكنى أخشى أن يكون الوقت قد
حان لذلك ! »

« .. غلم أعر هذه المناخة أى التفات ، ومضيت متدفعنة
في عملى ، وقد تنهدت إذ ذكرت زمنا كان ما أقوم به الآن
خليقا بأن يبدو أضحوكة لطيفة .. ولكن سرعان ما اضطرت
لطرده هذه الذكري ، فان استعادة سعادتى الماضية امام ناظرى
كانت تسبب لى عذابا وشقاء لا قبل لى باحتياله . وكنت
كلما اشتد خطر استحضار هذا الشبح من اعماق الماضى .
أسرعت في تقليب الثريد ، ومتابعة قذف تيفيزات الدقيق في
القدر . وكان جوزيف يرقب طريقتى في الطهى بسخط
متزايد ، وما لبث أن صاح قائلا : « هيرتون . انك لن تتناول
عشاءك من الثريد اللبلة يا بنى ! .. فلن يكون إلا كتلا كبيرة
جافة كقبضة يدى . ما هذا ؟ .. لو كنت في مكانك لالقيت
القصة كلها بها فيها في القدر ! .. ما شاء الله ! .. وما
هذا الدق بالمغرفة ؟ .. من حسن الحظ أن قاع القدر لم
يسقط في النار ! »

« واعترف أن الثريد عندما سكب في الأطباق كان غليظا
خشنا . كانت اربعة أطباق هى التى اعدت للعشاء ، كما
احضروا ابريقا كبيرا مملوءا باللبن الطازج ، أمسك به هيرتون
وراح يشرب من فوهته ، واللبن يسيل من بين ثغفيه
الممدودتين .. فاعترضت ، ورغبت إليه في أن يأخذ نصيبه

في قدحه ، مؤكدة اننى لا أستطيع أن أذوق طعما أو شرابا
تتبادلده الاقواه بهذه القذارة . ولكن المهرج المعجوز رأى أن
يبدى شعوره بالاهانة البالغة التى لحقت به وبالأسرة من
ملاحظتى الحقيقة « فراح يردد القول في تأكيد بأن « الصبى
لا يقل طبية » عنى ، و « لا يقل تذييا ونظافة » ، ويمعجب
كيف استطعت أن أظهر بهذه الخيلاء وهذا الغرور ! .. وفي
الوقت نفسه كان الوغد المغمير مستهرا في لعق اللبن ، وهو
يحذرنى بنظرات نارية ملوؤا التحدى ، وقد ترك لعبه يخلط
باللبن في الابريق !

« عندئذ قلت : « سوف أتناول عشاءى في حجرة أخرى
.. أ يوجد لديكم ما تسمونه حجرة الجلوس ؟ » .. فاجابنى
اخرا متهمكا : « حجرة الجلوس ؟ .. حجرة الجلوس ؟ ..
كلا ، لا توجد لدينا حجرات للجلوس ! .. إذا كانت مسجبتنا
لا تروك « فونك السيد اذهبى إليه . وإذا لم يترك السيد
فها نحن تحت أبرك ! » .

« فاجيته قائلة : « سوف أصعد إلى الطابق العلوى ..
ارضى حجرة أجلس فيها . » .. وكنت قد وضعت طبقى فوق
صحفة ، كما ذهبت بنفسى فاحضرت بعض اللبن النظيف
فتبض جوزيف بعد تأفف وتذير عظيمين ، وتقدمنى فوق
الدرج ، حتى بلغنا الحجرات العلوية . وكان بين الحين والآخر
يفتح بابا وينظر بداخل الحجرات التى كنا نجازها ، واخيرا
رفع لوحا متداعيا من الخشب ، تصر مفصلاته صريحا قبيحا ،
وقال :

— هاك حجرة تصلح لتناول عشائك فيها ! .. وسوف تجدين كيسا من القمح في الركن ، وهو كيس نظيف تماما .. ولكن إذا كنت تخشين اطلاق ثوبك الحريري العظيم فانثرى مندليك فوقه واجلسى عليه !

« وكانت تلك (الحجرة) اشبه بجحر مصنوع من الخشب ، تنوح منه رائحة الحنطة والشعير القوية ، وقد كدست حول جدرانها زكائب هذه الغلال تاركة فراغا غريبا في وسطه .. فالتفت إليه ، وواجهته غاضبة ، وانا اصيح به : « ما هذا يا رجل ! ليس هذا بالمكان الذى يصلح للنوم .. اننى اريد ان ارى حجرة نومى ! »

« فعاد يقول في لهجته الساخرة : « حجرة النوم ؟ .. لقد رايت كل ما لدينا من حجرات النوم .. إلا حجرتى » .. ثم أشار إلى « الوكر » المجاور الذى لم يكن يختلف عن الأول إلا في خلو جدرانها من الزكائب نوعا ما ، وفي احتوائه على فراش عريض منخفض ، خال من الستائر ، على أحد طرفيه لحاف مصبوغ بالنيلة !

فقلت أجيبه : « وما حاجتى إلى غرفتك ؟ .. أحسب أن مستر هينكليف لا يقيم فوق سطح المنزل . اليس كذلك ؟ » .. فصاح كأنها وقع على كشف جديد : « آه ! .. أهى حجرة مستر هينكليف التى تريدين ؟ .. أما كان بوسمك أن تقولى ذلك من أول وهلة ، حتى كنت أخبرك — بدلا من كل هذا الوقت الضائع — إنها الحجرة التى لن تستطيعى رؤيتها

بالذات ، لانه يومئذ دائما ولا يسمح لمخلوق بان يدخلها ، غيره ! »

« فلم اتمالك نفسى من القول : « ان لكم منزلا جميلا يا جوزيف ، يضم عشرة لطيفة سارة ! .. وما اظن إلا ان الخلاصة المركزة لشر أنواع الجنون في العالم قد اتخذت لها مستقرا في عقلى يوم أن ربطت مصرى بمصائرهم وقدرى بأقدارهم ! .. ولكن مهما يكن من أمر فان ذلك ليس موضع البحث الآن .. ان هنالك حجرات أخرى ، فاناشدك الله واستحلفك بحق السماء أن تسرع فترشدنى إلى مكان أقر فيه قليلا ، اينما يكن هذا المكان ! » .

« ولم يجبنى بكلمة على هذا التوسل ، بل أخذ يهبط الدرجات الخشبية للسلم في ضيق وتبرم حتى وقف أمام حجرة أدركت من وقفته ، ومن أثاثها الممتاز ، انها خير حجرات المنزل . كانت بها سجادة ! .. سجادة جيدة ، غير أن نقوشها ورسومها كانت مطبوسة تحت اكاداس الشبار الملبدة . وكانت بها مدفأة لصق على الجدار فوقها ورق ملون ممزق يتدلى قطعاً وشرائح غير منتظمة .. وفراش عريض فاخر من خشب البلوط تحوطه سقائر مضفاضة قمرزية اللون من قماش ثمين وطرار حديث ، وإن كان من الواضح انها عانت الكثير من سوء الاستعمال ، إذ كانت أطرافها العليا غير مشدودة ، بل تتدلى في دوائر وقد نزعتم من حلقاسها ، على حين كان القضيبي الحديدى الذى يحملها كالنوس على أحد

جانبى الفرائس وقد تدلت السسائر منه تجرجر اديالها على الأرض .. حتى المقاعد كانت تالفة ، واكثرها مهشم تملأ : .. وكانت ثمة فجوات غائرة عميقة تشوه ألواح الخشب الثمين التى تكسو الجدران : وتدل على ارماء اجسام صلبة حادة بها ..

« وكنت احاول أن استجمع عزمى للدخول إلى هذه الحجرة والاستيلاء عليها ، عندما أعلن مرشدى الأحق أن « ها هنا حجرة السيد » .. وكنت وقتئذ قد برد طعمى . وفثرت شهيتى ونغد صبرى . فأخذت ألح عليه فى أن يذلنى على مكان ألجا إليه واجد فيه وسائل الراحة .. فبدأ الشيخ المتدين يقول : « واين بحق الشيطان ؟ .. ليرحمنا الله ! .. ليغفر لنا الله ! .. اين تريدان أن تتسكعى بحق الجحيم ! .. انت ايتها العروس المتعبدة ! .. لقد رايت كل شىء إلا حجرة هيرتون الصغيرة .. ولا يوجد فى المنزل بعد ذلك حجر صغير آخر تاوين إليه ! »

« وكان الغضب والضيق قد نالا منى . فطوحت بالصحفة ومحتوياتها من يدى إلى الأرض ، وجلست فوق قمة الدرج . وأخفيت وجهى بين يدى ، وانخرطت فى البكاء .. بينما كان جوزيف يصيح :

... أخ .. أخ .. مرحى .. مرحى .. انك قد احسنت صنعا ! .. سوف يتعثر السيد الآن فى هذه الأوعية المحطمة ، وسوف نسمع منه الكثير . سوف نسمع منه ما ينبغي

وما لا ينبغي .. أنت ايتها الحقاء الطائشة ! .. انك تستحقين أن ينفل جسمك ويهزل من الآن حتى عيد الميلاد لإفنائك نعم الله الثمينة تحت الأقدام فى غضبك الأحق . ولكنى لا أكون أعرف شيئا إن استطعت أنت إظهار هذا الخلق السيء طويلا ! .. فبل نظنين أن هيفكليف سويسكت على هذه الفمالة الطيبة ؟ ! .. الا ليته يضبطك الآن متلبسة ؟ ! .. ليته يأتى ليرى ما فعلت !

« وهكذا ظل منطلقا فى تائبه لى ، بينما كان يهبط الدرج إلى وكره فى الطابق الأسفل : حلهلا الشمعة معه ، وتاركا إياى فى الظلام ! .. وقد اضطررتى فترة التفكير التى تلت هذه الفمالة الطائشة إلى الاعتضاع بأننى يجب أن أطمئن من كبريالى وأن اكبح جماح غضبى ، وأن أسارع إلى إزالة آثار ما فعلت .. وما كدت أهم بالعمل ، حتى بعث لى القدر بمساعد غير متوقع ، فى شكل « ثروتر » الذى عرفت فيه عندئذ ابن كلينا القديم « سكالكر » ، وكان قد قضى فترة « الحضانة ! .. » فى « الجرانج » قبل أن يهديه أبى إلى مستر هندلى ، وأغلب الظن أنه عرفنى ، فقد مسح أنفه بأنفى على سبيل التحية ، ثم أسرع إلى التهام الثريد مساعدة لى على تنظيف المكان من آثار تسرعى وطيشى .. بينما كنت أنقل من درجة إلى أخرى لأجمع قطع النخار المحطمة ، وأمسح بمنديلى رشاش اللين المتطاير فوق السياج .. وما كدنا نفرغ من مهمتنا ، حتى سمعت وقع خطوات إيرنشو فى الممر ، فارضى مساعدى ذنبه وحشره بين غنديه ، ثم التصق بالحجر الخشن ، على حين

اسرعت أَسْرِقُ الخُطَى إلى أَقْرَب باب إلى غَاخَتَيْتِ بِدَاخِلِهِ .. وقد غَشَلْتُ محاولة الكلب تجنُّبِهِ ، كَمَا أدْرَكْتُ ذَلِكَ مِنْ الْجَبَلَةِ الْغَاثِثَةِ عَنْ عَدْوِهِ السَّرِيعِ ، وَمِنْ عَوَائِهِ الطَّوِيلِ الْأَلِيمِ .. وَلَكِنِّي كُنْتُ أَسْعِدُ حَفَا ، فَقَدْ مَرَّ بِالْحَجَرَةِ الَّتِي اخْتَفَيْتِ فِيهَا مَرَّ الْكَرَامِ ، وَمَضَى إِلَى حَجَرَتِهِ ثُمَّ أَوْصَدَ بَابَهَا وَرَاءَهُ .. وَفِي اللَّحْظَةِ الْتَالِيَةِ كَانَ جُوزَيْفُ يَصْعَدُ مَعَ هِيرْتُونِ لِيَضْمَعَ فِي مُرَاشِهِ .. وَكَانَتِ الْحَجَرَةُ الَّتِي اتَّخَذْتُهَا مَلْجَأً لِي هِيَ حَجَرَةُ هِيرْتُونِ ، غَلِمَا رَأَى الشَّيْخُ الْغَانِي قَالَ :

— هَا قَدْ وَجَدْتَ حَجَرَةَ لَكَ وَلِكَبْرِيَانِكَ فِي الْمَزْلُ ، كَمَا أَرَى .
أَنهَا خَالِيَةٌ ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَتَّسَعَ لَكُمَا مَعًا ، وَحَاشَا لَكَ أَنْ يَكُونَ ثَلَاثُكُمَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الصَّحْبَةِ الشَّرِيرَةِ !

« وَتَلَقَّيْتُ هَذَا الْإِيمَازَ بِسُرُورٍ بَالِغٍ ، وَمَا كَدْتُ أَلْقَى بِنَفْسِي مُوقٍ أَحَدِ الْمَقَاعِدِ بِجَوَارِ النَّارِ ، حَتَّى هَوِمْتُ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُ فِي النَّوْمِ .. وَكَانَ نَوْمِي هَادِئًا عَمِيقًا ، وَإِنْ لَمْ اسْتَمْتِعْ بِهِ طَوِيلًا ، فَقَدْ أَيْقَظَنِي مَسْتَرٌ هَيْتَكَلِيفٌ — وَكَانَ قَدْ رَجَعَ لِنُورِهِ مِنَ الْخَارِجِ — لِيَسْأَلَنِي ، بِلَهْجَتِهِ الرَّقِيقَةِ الْحَبِيبَةِ ، عَمَّا أَفْعَلُ فِي هَذَا الْمَكَانِ . فَأَخْبَرْتَهُ بِسَبَبِ بَقَائِي إِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ الْمُنَازِعَةِ ، وَهُوَ أَنَّهُ كَانَ يَحْفَظُ بِمِفْتَاحِ حَجَرَتِنَا فِي جَيْبِهِ ! وَكَانَ لَاسْتِعْمَالِي لِضَمِيرِ الْجَمْعِ أَثَرُ رَهِيْبٍ ، كَأَنَّنِي ارْتَكَبْتُ إِثْمًا مَبِيتًا .. فَقَدْ رَاحَ يَسْبُ وَيَقْسِمُ أَنَّ الْحَجَرَةَ لَيْسَتْ حَجَرَتِي ، وَلَنْ تَكُونَ حَجَرَتِي يَوْمًا مَا ، وَأَنَّهُ سَوْفَ .. وَلَكِنِّي لَنْ أَعِيدَ عَلَى مَسَامِعِكَ الْغَاظَةَ ، وَلَنْ أَصِفَ لَكَ بِسَلَكَةِ الْمُعْتَادِ مِنْ .. غَيْرِ شَدِيدِ الْبَرَاعَةِ وَالذَّهَاءِ ، وَلَا يَقْرَأُ لَكَ قَرَارٌ فِي اسْتِنَارَةِ هَقْدِي وَكَرَاهِيَتِي



« وَهَكَذَا ظَلَّ مُنْطَلِقًا فِي قَانِيهِ لِي ، بَيْنَمَا كَانَ يَهَيِّطُ الدَّرَجَ إِلَى وَكْرِهِ فِي الطَّائِقِ الْأَسْفَلِ ، حَامِلًا الثَّمْعَةَ مَعَهُ .. »

.. وانى لتأخذنى الدهشة ويستولى على الذهول كلما فكرت فى أمره ، فتكون دهشتى من العمق بحيث تطفى على خوفى منه .. ولكنى أؤكد لك أن نمرا مغترا أو انعوانا سلما لا يمكن أن يثير فى نفسى ما يثيره هو من الرعب والفزع . وقد أنبأنى بمرض كاثرين ، وأنهم أخى بأنه السبب فيه ، وأنذرنى بأننى سوف أنوبى عن ادجار فى مقاساة الألم والمذاب .. حتى يستطيع أن يضع يده عليه !

« اننى أكرهه » أكرهه .. يالى من تمسة شقية ! .. وكنت حمتاء طائشة ، ولكن حذار أن تلفظى بكلمة من ذلك لأحد فى الجرائج) .. وسوف أتوقع حضورك يوما بعد يوم .. وكل ما أرجوه ألا تتخلنى عنى وتخيبى أملى ..

« ايزابيلا »

الفصل الرابع عشر

ما إن غرغت من تلاوة تلك الرسالة ، حتى ذهبت إلى السيد فاجبرته بأن أخته قد وصلت إلى المرتفعات ! وأنها أرسلت لى خطابا تعرب فيه عن أساها لما أصاب مسز لينتون ، وعن رغبتها الحارة فى رؤيته ، ورجائها فى أن يرسل إليها معى ، فى أقرب وقت مستطاع ! ما يدل على صفحه عنها !

فقال لينتون : « صفحى عنها ؟ .. ليس لدى ما أصفح عنها من أجله يا ايلين .. ويمكنك أن تذهبى إلى المرتفعات ويذرنج) بعد ظهر اليوم ، إذا شئت ، وأن تقولى لىبا اننى لست غاضبا منها : إنما أنا أسف من أجلها ، حزبن لأنى فقدتها .. سيما وأننى لا أستطيع أن أعتقد البتة بأنها سوف تكون سعيدة . ومهما يكن من أمر ! فإن ذهابى لرؤيتها لا يمكن أن يكون موضع تفكير ! فإن قراقنا أبدى .. أما إذا رغبت حقا فى أن تسدى إلى جميلا ، فدعيتها تقنع الوغد الذى تزوجت منه بأن يترك البلاد ! »

فسألته متوسلة : « وهلا بعثت إليها برقعة صغيرة يا سيدى ؟ »

— كلا ، فلا حاجة بنا إلى ذلك .. وإن اتصالى بمائلة هيكليف أمر لا يمكن تحقيقه ، كاتصاله بعائلتى ، ولن يكون له وجود قط ..

وقد أحزننى برود ادجار كثيرا ، ورحت كد ذعنى : على طول الطريق من الجرائج

أخف بها من وقع كلماته ، عندما أرددها على سامعيا ! ..
وكيف أهون من رفضه كتابة بضع كلمات يسرى بها عن
إيزابيلا . وأحسب أنها كانت تترقب حضوري منذ الصباح ،
إذ رايتها تنظر من خلال سجاج النافذة ، بينما كنت أجتاز
المطرق المؤدية إلى الحديقة ، فلما أومأت إليها برؤى محبة ،
رايتها تتراجع عن النافذة ، كأنها تخشى أن يراها أحد !
ودخلت البيت دون أن اطرق الباب ، فلما رأيت في حياتي
منظرا أبشع ولا أفظع من المنظر الذي يبدو فيه منزلنا القديم
المرح ! .. ولكن لا بد لي من الاعتراف بأنني لو كنت في مكان
السيدة الشابة لقميت ، على الأقل ، بكفسي الأرض حول
الموقد ، ولمحت الموائد بقطعة من القماش .. ولكنما كانت
قد تشبعت بروح الإهمال التي تسود كل من يحيط بها .
وكان محيطها الجميل شاحبا مصغرا ، يبدو عليه الضعف
وقلة الاكتراث ، وشعرها مشعثا غير مرجل ، وقد تدلت
بعض غذاره في غير نظام ، بينما عصص باقيها حول رأسها
في إهمال . أما هندامها فيكنى اثني رجحت أنها لم تلبس
ثوبها منذ مساء اليوم السابق ! .. ولم يكن هندلي هناك ،
أما مستر هينكليف فكان جالسا إلى متضدة ، يقلب بعض
الأوراق في مكتبته ، ولكنه بانر إلى النهوض عند ظيوري .
وسألني من حالي ، في كثير من الود ، ثم قدم لي مقعدا . وكان
هينكليف الشيء الوحيد الذي يبدو في هذا المكان نظيفا
محترما . حتى لقد خطر لي أن مظهره لم يكن يوما خيرا مما
هو الآن ! .. ولقد بلغ من عظم ما فعلته الأحداث من تبدل

مركزيهما . أنه كان يبدو في نظر الغريب الذي لا يعرف
متشاه ، كأنما ولد وربي في وسط النبلاء والأشراف ، على
حين أن زوجته كانت تبدو كأنها امرأة صغيرة نشأت وسط
الأقذار والإهمال وسوء التربية !

وتقدمت إيزابيلا لتحتي في لفة وطلق ، ومهدت إلى إحدى
يديها لتلقى الخطاب المنتظر ، فبرزت رأسي .. ولكنها لم تفهم
تلميحي ، وتبعثني إلى خزانة ثياب كنت أهم بان أضع فيها
قميصي . وهي تتوكل إلي في همس بان أعطيها للثو ما أحضرت .
معى .. وقد حدس هينكليف معنى مناوراتها ، فثقال :

— إذا كان معك شيء لإيزابيلا ، ولا بد أن يكون معك شيء
لها يا نللي ، فأعطيها لها ، ولا حاجة بك إلى اعتبصاره سرا ،
فلا أسرار بيننا ..

ورأيت من الأفضل أن أذكر الحقيقة من غوري ، فأجبت :
« آه ! .. ليس معى شيء البتة . وقد طلب إلى سيدي أن
أخبر شقيقته بأنها لا ينبغي أن تتوقع منه زيارة أو خطابا في
الوقت الحاضر .. وهو يبعث إليك ، يا سيديتي ، بحبه
وتمنياته لك بالسعادة ، وصفحه عما سببت من أحزان ،
ولكنه يرى أنه ينبغي بعد الآن قلع كل صلة بين أهل منزله
وأهل هذه الدار ، تلك الصلة التي لا يرجى من قيامها
أمل قط !

فارتجفت شفتا مرس هينكليف رجفة طفيفة ، وعادت إلى
مقعدا بجوار النافذة ، أما زوجها فقد وقف بجوار الموقد ،

يحدث ذلك غائى افضل أن أموت موتا بطيئا قبل أن أمسى شعرة واحدة من رأسه !

فقاطعت قائلة : « ومع ذلك غاتك لا تتورع عن تحطيم كل أهل في شفافها النام ، بإتحام نفسك على ذاكرتها الآن ، بعد أن أوشكت على أن تنسك ، وإتحامها هي في دولة جديدة من المتاعب والمنازعات ! »

— وهل تزعمين أنها أوشكت على نسيانى ؟ .. أواديا نللى ! .. انك تعلمين أن ذلك غير صحيح ، وأنها لم تنسى قط . وأنت تعلمين — كما أعلم — أنها إذا فكرت في لبنتون مرة . فكرت في ألف مرة ! .. ولقد ظننت شيئا من هذا القليل في فترة من أمتى أيام حياتى ، وكان هذا الظن لا يفتأ براودنى عندما عدت إلى هذه الأنحاء في الصيف الماضي . ولكن ما من شيء يجعلنى اتقبل هذه الفكرة النظيمة مرة أخرى ، إلا أن أسمعها تؤكد لها لى بنفسها . وعندئذ لن يكون لبنتون شيئا في ناظرى ، ولا همدلى ، ولا أى حلم من تلك الأحلام التى طالما اشتيتها .. عندئذ سوف ينطوى مستقبلى كله تحت كلمتين : الموت ، والجحيم .. وسوف يصبح وجودى كله جحيما إذا فقدتها ! .. ومع ذلك فقد كنت غرا الله عندما تصوررت لحظة أنها تقدر تعلق أذجار بها أكثر مما تقدر تعلق أنا بها .. وإذا كان يجبها بكل ما في كيانها الضئيل من قوة ، فلن يحبها في مدى ثمانين عاما كحبنى ليا يوما واحدا ! وإن لكاثرين قلبا عميقا كقلبى ، والأيسر أن تجمعى مياه البحر في ملك الجواد هذا ، من أن يستأثر أذجار بعاطفتها كلها !

عراء ! .. إنه لا يكاد يسو درجة في الاعزاز لديها عن كلبها أو جوادها ! .. إنه لا ينطوى على شيء يجعله محبوبا ، ملى ، فكيف تستطيع أن تحب فيه شيئا ليس من خصائصه ؟

نصاحت أيزابلا في ائذفاع بنجاء :

— إن كاثرين وأذجار يقبالان الحب كائى اثنين من الناس . وليس من حق أحد أن يتحدث عنهما على هذا النحو . كما اننى لا أستطيع السكوت على سماع أخى يبخس قدره إلى هذا الحد !

فأجابها هيكليف في ازدراء :

إن أخاك مولع بك أشد الولع أيضا ، اليس كذلك لا .. ومع ذلك فإنه يشكر لك ويتركك تهيمين على وجهك في الدنيا تحت رحمة الأقدار ، في سهولة عجيبة !

— إنه لا يدري شيئا عما أقاسيه من آلام ، لأننى لم أخبره بذلك ..

— إذن فقد أخبرته بشيء آخر .. لقد كتبت إليه ، اليس كذلك ؟

— لقد كتبت إليه لأخبره بزواجى ، وقد رأيت خطابى بنفسك ..

— ولم تكتبى شيئا آخر منذ ذلك الحين ؟

— كلا ..

فدخلت قائلة : « ان سيدتى الشابة تبدو حزينة وفي حالة سيئة بسبب تغير حالتها ، والظاهر أن حب « بعض »

الناس « قد تضاعف كثيرا بالنسبة إليها . وربما كان في وسعي أن أحسن من هم هؤلاء الناس ، ولكني لن أسببهم ! »

فقال هينكليف : « أحسب أن الذي تضاعف هو حبيبا هي . فقد فسد خلقها حتى غدت مجرد امرأة موهلة مشاكسة . بل لقد تمعت سريعا من محاولة إدخال السرور على . على نحو غير مألوف . وقد يصعب عليك تصديق ما أقول . ولكننا في صبيحة يوم عرسنا نفسه كانت تبكي وتريد العودة إلى منزلها ! .. ولكني سوف أربها كيف توطن نفسها على العيش في هذا المنزل ، والرضى بما قسم لها فيه . وسوف أعمل بوسائل الخاصة على منعها من إلحاق العار بي بتجوالها خارجة ! »

فاجبت قائلة : « حسنا يا سيدي . أرجو أن تدخل في اعتبارك أن مسز هينكليف اعتادت أن تجد من يعنى بيها ويقوم بخدمتها ، وأنها نشأت وربيت كابنة وحيدة مثلك يسارع الجميع إلى خدمتها . لذلك ينبغي أن تحضر لها وصيفة ترعاها وتعمل على تنظيف المنزل وترتيبه . كما ينبغي أن تحسن معاملتها وأن تكون بها رفيقا . فمهما كان رأيك في مستر أيجار ، فإنك لا تستطيع أن تشك في قدرتها على العواطف القوية ، وإلا لما تركت الراحة والرغامية والأصدقاء في منزلها القديم واتت راضية لتعيش معك في برية موحشة كهذا المنزل ! »

... لقد هجرت ذلك كله تحت تأثير الأوهام التي صوّرتني في عينيها كبطل من أبطال القصص والروايات الغرامية .

متوقعة أن تجد من إخلاصى ووفائى وشهامتى ما يشبع رغبتنا إلى درجة غير محدودة . وإن إصرارها الأحمق على اعتناق فكرة خيالية عن خلقى ، وتصرفها الأخرق على أساس تلك الأحاسيس التى كانت تنميها وتغذيها في نفسها ، ليجعلنى أنظر إليها ك مخلوق ليست به ذرة من العقل . ولكني أحسبها قد بدأت تعرفنى على حقيقتى أخيرا ! .. فلم أعد أرى منها تلك البسمات البهلاء ، ولا تلك الحركات المسخفة التى تشكّل بها وجهها ، والتى كانت تثيرنى بها في بادئ الأمر . كما لم أعد ألمح عليها ذلك العجز الأخرق عن تمييز ما إذا كنت جادا أم هازلا عندما كنت أبدي لها رأيي فيها وفي اغتنابها بي ! .. ولقد كان جيدا باهرا من الفطنة وبعد النظر أن تكشف أننى ما أحببتها قط ! .. فقد كنت أعتقد ، يوما من الأيام ، أن أية دروس تتلقاها على يدي لا يمكن أن تكنى لكى تعنى ذلك وتفهمه . ومع ذلك لم يبدو أنها قد وعته إلى حد ما . إذ أعلنت لى هذا الصباح - كما لو كانت قد وقعت على اكتشاف مروع - أننى قد نجحت فعلا في إثارة كراهيتها لى ! .. وهذا لعمرى عمل جبار يحتساح إلى ثروة خارقة كقوة هرقل ! .. ولو أمكن اتهامه لاسم تحقق منى الشكر والحمد ! .. فهل يوسمى أن أثق في بذكائك هذا يا إيزابيلا ؟ أنت واثقة حقا من أنك تكرهينى ؟ وهل لو تركتك وحده يوما أو بعض يوم ، لا تعودين إلى ضارعة بكية ؟ .. وأحسب أنها كانت تود لو تظاهرت بالحنان والرفقة أمامك يا نللى ، فإن كشفت الحقيقة عارية جردة لما يجرح كبرياءها وغرورها ، ولكني لا أبايى لو مرتبت الناس جميعا أن

الحب كان من جانبها وحدها ، وأنتى ما كذبت عليها أو
تظاهرت بحبها قط . وليس فى وسعها أن تنهمنى بأننى
أظهرت لها رقتا ولينا كاذبين خداعين ، فإن أول شىء رآته
منى عندما غادرت (الجرائج) هو أنتى شفتت نكبتها الصغير .
ولما توسلت إلى أن أبقي عليه ، كانت أولى كلماتى التى نطقت
بها أنتى أعربت عن رغبتى فى شئ كل من يمت إليها بصلة .
إلا شخما واحدا ! .. ولعلها اعتبرت هذا الاستثناء منصبا
عليها هى ! .. ولكن قسموتى ووحشيتى لم تثر الإشمئزاز
فى نفسها ، وأحسب أن فى أعماقها إعجابا غلريا بها طالما ظل
شخصها الغالى يبنأى عن الأذى ! .. والآن : الا ترين أن
هذه الكلبة الذليلة الحمقاء قد بلغت أعلى ذرى السخف .
وأروع آيات الغباء عندها راودها ذلك الحلم الأخرق بأننى
يمكن أن أحبها ؟ .. أخبرى سيدك ، يا نللى ، بأننى لم
الق قط فى حياتى بأسرها ، شيئا حتمرا خبيسا مثلها ..
بل إنها لتكسين اسم لينتون . لقد كنت أخفف من قسموتى
أحيانا - لأن التفتن كان يعوزنى فى استتباط وسائل تعذيبها -
فكنت أترأخى فى اختبار أقصى ما يبلغه احتيالها ، ومع ذلك
كانت تزحف على ركبتها فى خضوع وتذل . ولكن أخبرته
أيضا أن يريح قلبه الأخرى وسلطته القضائية ، فأنتى التزم
حدود القانون بدقة بالغة ، متجنبنا حتى هذه اللحظة كل
ما يعطى الحق فى طلب التفرقة بيننا . والأكثر من ذلك أننا
لن نشكر أحدا على إيمادها عنى ، ولكنها إذا رغبت فى
الذهاب ، فعلى رسالها ! .. فإن المضايقات التى بثرتها
محضرها النكد ، تلغى على المتعة المشتقة من تعذيبها ..

قلت له : « هذا يا مستر هيثكليف كلام رجل مجنون ،
وأغلب الظن أن زوجتك قد اقتنعت بجنونك ، ولهذا السبب
احتملت عشرتك حتى الآن ! أما وقد قلت الآن إن ليسا الخيار
فى الذهاب ، فلا شك فى أنها سوف تفيد من هذا التصريح ..
وأحسب يا سيدتى أنك لست مفتونة بملوكة اللب بحيث
تتقين معه بلاء اختيارك ، أليس كذلك ؟ » .

فانبعثت ايزابيلا تقول ، وقد تطاير من عينيها شرر الحقد
والغيط ، حتى لم يعد لدى أى شك « عند رؤيتها وفهم
التعبير الذى أرتسم غيما ، فى التجاح النام الذى كللت به
محاولات زوجها لجعلها تمتهن :

— حذار يا ابلين ! لا تصدقنى كلمة واحدة مما يقول .. إنه
شيطان كذوب ، بل وحش تجرد من صفات البشر ! .. لقد
أخبرنى مرة قبل الآن أن بوسعى أن أتركه ، فاقدمت على
المحاولة ، ولكنى لا أجرؤ الآن على إعادتها مرة أخرى ! ..
فقط عدبنى يا ابلين ألا تذكرى كلمة من حديثه الشائن لآخى أو
لكاثرين .. نهىبا أدعى أمامك ، فإنه إنما يسمى لإنارة
البأس والقنوط فى نفس أدمجار ، ويقول إنه تزوج منى حتى
تكون له السيطرة عليه .. ولكنه لن ينال هذه السيطرة ،
فسوف أموت قبل أن يحقق أمنيته هذه ! .. وشد ما أرجو ،
وادعو الله ، أن ينسى حظه الشيطانى مرة ، فيقتلنى .. فإن
المتعة الوحيدة التى أتصورها ، هى أن أموت ، أو أراه ميتا !

فقال هيثكليف : « صه ! .. كفى هذا الهراء الآن . وعليك
يا نللى أن تفكرى كلماتها هذه إذا ما دعيت للشهادة فى المحكمة

اميلى برونى

٥٧

وليس بى من رغبة فى إثارة المشاكل . أو إغضاب مستر لينتون أو إهائته . . فكل ما أريده هو أن أسمع من فم كثرين كيف تجد نفسك الآن ، ولماذا تعرضت لهذا المرض الشديد ، وأن أسألك إن كان بوسعى أن أؤدى لها خدمة أو أكون ذا نفع لها على أية صورة . لقد قضيت فى حديقة « الجرانج » ليلة الأمس ست ساعات متوالية ، وسوف أعود إليها الليلة أيضا . بل أننى لن أكف عن ارتياد المكان كل ليلة ، وكل يوم ، حتى أجد فرصة لدخوله . ولو التقى بى ادجار لينتون ، فلن أتردد فى أن أصرعه ، وأكيل له من الضربات ما يكفى ليقائه بلا حراك مدة بقاءى معها ! . . أما إذا تعرض لى خدمته ، فسوف أرغمهم على مغادرة المنزل مهددا إياهم بهذا المسدس ، ولكن ألا ترين من الأفضل أن تمنع أسباب احتكاكى بهم أو سيدهم ؟ . . ان فى وسعك أن تفعل ذلك فى بسر . سوف أنذرك بحضورى ، وعندئذ يمكن لك أن توينى لى سبيل الدخول ، دون أن يحس بى أحد ، بمجرد أن تجدنيها بفردتها ، ثم ترقيبين المكان حتى أبرحه . وثقى أن ضميرك سيترتاح إلى ذلك تماما : لأنك فى الواقع إنما تحولين دون وقوع أضرار كثيرة ! » .

فاعتزست على أدائى دور الخائنة فى منزل مخدومى ، فضلا عن أننى بذلك إنما استعصت قسوته وأنانيته على تدمير هدوء مسز لينتون وراحتها ، مرضاة له وإشباعا لرغباته . . ثم أردت قائلة :

— إن أى حادث عادى يحدث

. . ثم تأملى هذه السحنة المطلوبة ! لقد قاربت الترجمة لى تعجبى وتوافقنى ! . . كلا يا إيزابيلا - أنك لا تصلحين لى لحماية نفسك ، ولا تؤمنين عليها . ولما كنت حاميك الشرعى - فلا بد لى من حجزك تحت حراستى . مهما كان هذا الاقتراح بغيضا بمنرا . . والآن ، اصعدى إلى الطابق العلوى . فإن لى شيئا أريد أن أقوله لآيلين دين سرا . كلا . ليس هذا هو الطريق ، إنما قلت لك اصعدى ! . . لماذا ؟ تعالى أربك طريق الصعود يا طفلى العزيزة ! » .

ثم أمسك بها ، وراح يجرحها حتى طوح بها خارج الحجرة . وعاد ليفهم قائلا : « إننى خلو من الشفقة . مجرد من الرحمة ! . . وكلما ازدادت الديدان تلويها وتوجعا . ازداد حينئذ لى سحقها وإخراج أحشائها ! . . أرايت الطفل عندما تثبت أسنانه ، وكيف يثلف على العض والمضغ ؟ . . ان بى لهفة معنوية ممانلة ! . . ولكن طحنى وتحريق أسنانى يزدادان قوة وحمية ، بنسبة ازدياد الألم بالقربية ! » .

فقلت وقد أخذت قبعتى من المشجب : « وهل تفهم لكلمة الشفقة معنى ؟ . . بل هل شعرت قط فى حياتك بلهسة منيها فى قلبك ؟ » .

فقاطعتنى قائلا ، وهو يرى عزمى على الرحيل : « ضعى هذه جانباً ، فلم يحن وقت انصرافك بعد . والآن اسمعى يا آيلين : إننى لا بد لى من أن اقنعك ، أو أرغمك ، على مساعدتى فى تحقيق ما اعتدت عليه العزم من مقابلة كثرين ، بغير إهمال أو توان . وأقسم لك إننى لا أضمر شرا أو ضرا .

أصبحت أعصابها كلها شديدة التوتر ، ولا يمكنها أن تحتل المفاجأة . إننى واثقة من ذلك ، فلا تردد إلحاحا وإصرارا يا سيدى ، وإلا اضطربت لإخبار سيدى بتدبيرك . وسوف يتخذ الإجراءات الكفيلة بحماية منزله وساكنيه من مثل هذا التعفل غير المرغوب فيه !

فصاح هيثكليف : « فى هذه الحالة سوف أتخذ أنا الإجراءات الكفيلة بسجنك هنا يا امرأة ! .. فلن تفادى المرتفعات ويذرنج) حتى صباح الغد . وإنها لخراقة سخيفة أن تزعمى أن كاثارين لا يمكن أن تحتل رؤيتى . أما مفاحضى لينا . فهذا أمر لا أوده ، وعليك أن تعديبا للقاتل . وتسألني الإذن لى بالدخول . .. ثم انك تقولين إنها لا تذكر اسمى قط . وإن أحدا لا يذكره أبامها . .. فلن نريدين ان تذكر اسمى بما دام الحديث عنى يعد محرما فى منزلها . .. إنها تظلمكم جميعا جواسيس زوجها عليها . أجل . لست انتك انتم حوبس كزبانية الجحيم ! .. وإنى احس فى صمتها . كائى شئ آخر من احوالها الآن ، مبلغ ما تعانيه هناك وتشعر به . وانت تقولين إنها غالبا ما تبدو قلقة لا تستقر على حال من اللهفة والتوجس ، فهل يد ذلك دليلا على اليءوء الذى لا تريدين منى أن أعكر صفوه ؟ .. وقد تكلمت عن عقلها المضطرب . فكيف يمكن أن تكون غير ذلك ، بحق الشيطان . وهى تقاضى هذه المزة المروعة ؟ .. ثم ذلك المخلوق الخافه التحقير الذى يرعاها بدافع من الواجب والإنسانية . .. من الشفقة والإحسان ! .. أن يوسعه أن يغرس شجرة بلوط فى أسيص

زراع صغير . ويتوقع منها أن تنمو وتترعرع ، إذا تصور انه يستطيع أن يرد إليها قواها وصحتها فى تربة رعايته النضفة الضحلة . والآن ، دعينا ننقضى من الأمر حالا ، غل تفضلين البقاء هنا . وتركينى أشق طريقى إلى كاثارين فوق جثث لينتون وخنه ؟ .. أم تكونين صديقتى ، كما كنت دانها حى الآن ، فتفعلن مارجوتك أن تؤديه لى ؟ .. ولكن عليك أن تختارى أحد الطريقين على الفور ، لأننى لا أرى سببا يدعمنى إلى التردد والتباطؤ دقيقة أخرى إذا كنت تصرين على التثبت بعنادك وسوء خلقك ! » .

حسنا . . لقد ظلت أجادله واتوسل إليه طويلا . يا مستر لوكوود ، ورفضت رفضا قاطعا كل ما طلبه منى أكثر من خمسين مرة ! .. ولكنه أرغمنى أخيرا ، بعد حدال طويل ، على اتفاق بيتنا ، فعمدت له بان أحول خطابا منه إلى سيدتى . ووعده - فى حالة موافقتها - بان أبلغه بضياب سيدى عن المنزل ، فى أول مرة يغيب عنه فيها ، والموعد الذى يستطيع فيه الحضور ودخول البيت كيفها شاء . .. ولكنى لن أكون هناك ، كما أن زملائى الخدم سيخلون الطريق بالمثل . فهل كان ما فعلته خطأ أم صوابا ؟ .. أغلب الظن أنه كان تصرفا خاطئا . وإن كان من ناحية أخرى نافعا مثمرا ، فقد ظننت أننى يامثالى لرغباته أنها أحول دون انفجار الموقف من جديد . كما ظننت أن ذلك اللقاء قد يحدث رد فعل طيب فى مرفق كاثارين العلى . ولكنى عدت فتذكرت انتهار مستر أجار الصارم لى وتحذيره إياى من تقلب العواطف والأماسدات .

الفصل الخامس عشر

مضى اسبوع آخر .. وازدادت بى الأيام اقترابا من الصحة الكاملة ، والربيع البسام . وقد فرغت من سماع قدسة جارى كاملة ، فى جلسات مختلفة كانت مديرة المنزل تخطبها بين مشاغلها العسيدة الأخرى . وسوف أمضى فى سردها ، مستخدما كلماتها ذاتها ، مع قليل من التركيز ، فأنهما فى الواقع تصاصة بارعة ، ولا أحسبني قادرا على تحسين أسلوبها .. قالت :

« فى ذلك المساء ، مساء زيارتى « للمرتفعات » ، كنت أحس بوجود مسكر هيكليف قريبا من المنزل ، كما لو كنت أراه بمعنى ، نتجنب الخروج من الدار ، لأننى كنت ما أزال أحمل خطابه فى جيبى ، وكنت راغبة عن سماع المزيد من الوعيد أو التائب . كنت قد قررت ألا أسلم الخطاب حتى يقادر السيد المنزل إلى أى مكان ، لأنه لم يكن فى وسعى أن أحس كيف يكون أثره على كائنين . وكانت النتيجة أنه لم يصل إليا إلا بعد انقضاء ثلاثة أيام كاملة . وكان الرابع يوم الأحد . فأحضرت الخطاب إلى حجرتها بعد أن ذهبت العائلة كلها إلى الكنيسة ، ولم يبق فى الدار - عداى - إلا رجل من الخدم ترك ليساعدنى فى الأعمال المنزلية . وكنا عادة نعد إلى اغلاي الأبواب خلال ساعات القداس ، ولكنى يومئذ انتفرت فرصة دفء الجو وروعه ، فتركتهما مفتوحة جميعا ، كما أننى - وفاء بوعدى ، إذ كنت أعرف تماما من الذى سوف يقسم إلينا -

ورحت أحاول التيوين من شأن المخاوف التى فتازعتنى من جراء هذا الأمر ، بأن أخذت تؤكد لنفسى . مرة بعد مرة . أن هذه الخيانة لثقة سيدى - إذا كان مسلكى يستحق هذه التسمية القاسية - ينبغى حتما أن تكون الأخيرة . وكانت رحلة العودة إلى الدار أشد كآبة وحزنا من رحلة الذهاب . وانتابتنى اليواجم من كل ناحية قبل أن اغنع نفسى . أو أرغبها . على وضع الرسالة بين يدى مسز ليتون .

« ولكن ها هو ذا كينيث قد حضر . وسأنزل إليه . لأخبره بتقدمك الحثيث فى طريق الشفاء . أما قصتى « المهلة » . فلنرجنها الآن » وسوف نصلح لقطع الوقت فى صباح يوم آخر . وبينما كانت المرأة الطيبة تنزل لاستقبال الطبيب ، كنت أقول لنفسى : أجل ، إنها قصة مملة . وكثيرة موحشة فى الوقت نفسه ، وليست من النوع الذى كنت حائتا باختياره لتسليتنى . ولكن لا بأس ، فسوف استخرج ادبيب العقاقير من أعشاب « مسز دين » المريرة .. ولكن على - قبل كل شيء - أن أحذر ذلك السحر الذى يكمن فى عيني كائنين هيكليف البراقطين .. فسوف أجد نفسى فى ورطة عجيبة لو سلمت قلبى لهذه الشابة الحناء ، ثم تبين أن الابنة ليست إلا صورة طبق الأصل من أمها !

قلت لرفيقتي إن السيدة تشتكي البرتقال ، وأن عليه أن يسرع إلى القرية عدوا لبحضر بعضها منه ، على أن تدفع ثمنه في اليوم التالي . وما أن غادر البيت حتى صعدت إلى الطابق العلوي .

« كانت مسرلينتون تجلس في نجوة النافذة كالمعتاد ، وترتدي ثوبا غضاضا أبيض اللون ، وتغطي كتفيا بشملة خفيفة . وكان شعرها الخيزر الطويل قد عقص مرفوعا فوق رأسها في بداية مرضها ، أما الآن فكان ممسطا في بساطة . وتمسدل خصلاته في توجه الطبيعي فوق صدغها وعنقها . وكان مظهرها قد تبدل تماما . كما أنبات هيكلها - ولكنها عندما تكون هادئة فإن هذا التبدل يبدو فيه مسحة من جمال ملائكي لا عهد لدينا البشر بمثله ! . . . وكان البريق المتألق في عينيها قد خبا ، وبدت مكانه عذوبة حالة حزينة . ولكن هاتين العينين لا توحيان بأنهما تنظران إلى الأشياء المحيطة بها ، وإنما تبدوان دائما وكأنهما تتطلعان إلى ما وراءها ، تتطلعان إلى بعيد وراء كل شيء ، حتى ليحس لك أن تقول أنهما تتطلعان إلى ما وراء هذا العالم كله . . . أما شحوب وجهها - الذي اخفتني عزاله ومظهره الهضم منذ أن اكتسب بشيء من اللحم - والتعبير القريب المرتسم في محياها من أثر حالتها العقلية - فانيها وإن كانا ينمان على نحو اليم ، عن الأسباب التي أدت إليهما ، فقد كانا يزيدان من الشعور بالأسى الذي يثره مرأها في النفوس . أما أنا فكانت أجد فيهما - وأحسب أن أي شخص ينظر إليهما كان يجد ذلك مثلي - ما يتقض أية أدلة ظاهرة أخرى على نقاهتها وقرب شفائها ، وإنما بسمها بطايع الشخص الذي قضى عليه بالفناء !

« وكان على النافذة بجوارها كتاب مفتوح تحرك التسمات البادئة أوراخه بين آن وآخر . وفي يقيني أن لينتون هو الذي وضعه هناك ، إذ أنها لم تكن تحاول قط أن تسلي نفسها بالقراءة ، أو تشغل نفسها بأي عمل آخر . وكمن من ساعده كان يقضيها محاولا أن يثير انتباهها إلى شيء مما كان موضع تسليتها في الماضي . وكانت تعي ما يرمى إليه ، فإذا كانت في حالة طيبة ، فانيها تحتمل محاولاته في هدوء واستكانة ، مكتفية بإظهار عدم جدواها بها ينبعث منها بين وقت وآخر من تهديد الضجر والسأم ، حتى تنتهي أخيرا إلى إيقاف مساعيه بابقسامه حزينة . أو قبلة خائرة . أما في الحالات الأخرى ، فانيها تتحول عنه في نفور وعناد ، وتخفي وجهها بين راحتها ، أو تدفعه عنها في حق وغضب . . . فكان عندئذ يحرص على أن يتركها وحدها ، مدركا عن يقين أنه قد أخطاه الصواب في مساعاه .

« وكانت أجراس كنيسة (جيمرتون) لا تزال تدق من بعيد ، كما كان الخيزر البادئ لقنوت الوادي يصانع الأذن وديها رقيقا ، فكان بديلا جميلا لذلك الحفيف الذي لم يحن موعدده بعد . حفيف أوراق الشجر في الصيف ، والذي كان يطغى على موسيقى القنوت مند ما تورق الأشجار حول (الجرانج) . . . وكان خيزر الماء يسمع دائما في « مرتفعات ويلزنج » كلما سكن الهواء إثر انهيار المطر طويلا ، أو جريان الطلوج الذائبة فوق التلال . وكانت كاثرين تفكر في « مرتفعات ويلزنج » وهي تصغي إلى ذلك الخيزر المديني . . . إن كانت تنظر في شيء أو تصغي إلى شيء على الإطلاق - ولكن كانت في عينيها

تلك النظرة الجوفاء الغامضة التي وصفتها من قبل - والتي لم تكن تعبر عن إدراك لشيء من الأشياء المادية سواء عن طريق السمع أم البصر ..

« ووضعت الخطاب في رفق في يدها المستقرة على ركبتيها - وقلت :

— هذا خطاب لك يا مسمر لينتون .. وينبغي أن ترقبني على الفور ، لأنه يتطلب ردا .. هل انضرت أخيرا ؟

« فلم تغير اتجاه نظراتها ، وقالت في اقتضاب : « نعم .. »

« وفتحت الخطاب ، وكان موجز العبارة ، ثم استطردت ثانية : « اقترنيه الآن ! »

« غير أنها جذبت يدها بعيدا ، فسقط الخطاب على الأرض .. فالتقطته ثانية ووضعت في حجرها ، ووقفت أنتظر حتى يروق لها أن تنظر إليه ، لكن ترقبني لهذه الحركة طال على غير جدوى ، حتى اضطررت إلى متابعة كلامي قائلة : « هل تريد أن أقراء عليك يا سبدي ؟ .. إنه من مسمر هيثكليف ! »

« فأجفلت ، ولاحت في عينيها بارقة من عودة الذاكرة . وتراءت في محياها دلائل النضال في سبيل تنظيم أفكارها . ثم رغعت الخطاب ، وبدأ عليها أنها تتصفح في إيمان . حتى إذا ما بلفت الإضاء ، تأوهت في مرارة . ومع ذلك فقد وجدت أنها لم تدرك دلالة تماها ، لأنني عندها رغبت إليها في أن تسمعني جوابها ، اكتفت بأن أشارت إلى الاسم - وراحت تغرس في وجهي في لهفة حزينة متسائلة .. عندهت حاجتي

إلى من يشرح لها الأمر ، وقلت : « حسنا .. إنه يود أن يراك .. وهو الآن في الحديقة ، يتلف على معسرة الإجابة التي أحملها إليه .. »

« وكنت قد لاحظت أثناء كلامي أن كلبا ضحفا - كان يقبع تحتنا في الحديقة مستلقيا في استرخاء في أشعة الشمس الساطعة فوق العشب الأخضر - قد نصب أذنيه فجأة ، وبدأ يهم بالنباح ، ولكنه ما لبث أن أرخاها وهو يعلن ، بهزات غيلة ، عن مقدم شخص لا يعدد غريبا عن المكان .. ومكنت مسر لينتون إلى الأمام ، وهي ترهف السمع ، وقد حبست أنفاسها . وفي اللحظة التالية سمعت وقع أقدام تدبر الردهة . كان المنزل المفتوح من قوة الإغراء لهيثكليف بدخوله ، بحيث لم يستطع مقاومته .. وأغلب الظن أنه حسبنى قد نكثت بعهدي له . عصم على الاعتماد على جراته ! .. وكانت كائرين متعلقة الأنظار بباب حجرتها ، في لهفة واشتياق شديد . غير أن القادم لم يصب الحجره الصديحة في بادية الأمر ، فاشاورت إلى أن استقبله ، ولكنه اهتدى إليها قبل أن أبلغ الباب . وفي خطوات وثابة ، كان يقف إلى جانبيها ، ويضمها إلى صدره في قوة !

« ولقد لبث أكثر من خمس دقائق لا ينطق بكلمة ، ولا يرخى ذراعيه عن احتضانها ، وقد راح في خلالها يملأها بعدد من القبلات أحسب أنه لم يمنح أحدا أكثر منه في حياته منذ من قبل ! .. ولكنني أشهد أن سبدي هي التي قد أدته أولا . ورايت في جلاء أنه لم يستطع احتفال النظر إليها ، لشرط اليد

الصارخ . كان قد أدرك — كما أدركت أنا — منذ أن وقعت
أنظارد عليها ، أنه لم يكن ثمة أمل في شفائها ، وأنه قد قضى
عليها بالموت ، لا شك في ذلك ولا ريب !

« وكان أول ما نطق به ، هو أن راح يهتف في لوعة دون أن
يحاول إخفاء بأسه وأساده : « اواه ياكائي ! .. اواه يا حبيبتي !
.. كيف أستطيع احتمال ذلك ؟ » .. وكان عندئذ يحدق
النظر إليها في إيمان شديد ، بحيث ظننت أن تركيز نظراته
سوف يجلب البكاء إلى عينيه .. ولكنها كانتا تنفذان بالمذاب
والآلم ، وقد تحجرتا فلا تنديان بالدموع .. فأسندت كاثرين
كتنيتها إلى ظهر المقعد : وراحت تبادله نظراته وقد قلمت
حاجبها . كان مزاجها أشبه بدوارة الريح ، لاهوائها الدائمة
الانقلاب والتغير .. وما لبثت أن قالت :

— وماذا الآن ؟ .. لقد حطمتها قلبي ، انت وأدجار ،
يا هيثكليف ! .. ثم تأتين كلاكما تتباكيان وتعيبان على
ما فعلتما بهي ، كأنكما انتما اللذان تستحقان الإشفاق والرثاء
.. ولكني لن أشفق عليك أو أرثى لك ! لست أنا التي تفعل
ذلك . لقد قتلتي ، وأحسبك أغلحت في ذلك . يا لله !
ما أتواك ! .. ترى كم من السنين تنوى أن تعيشها بعد أن
أرحل ؟

« وكان هيثكليف يركع على إحدى ركبتيه بجوارها
ليستطيع احتضانها » فحاول النهوض ، ولكنها أمسكت بشعره
وتشبعت به لتبقيه في مكانه ، ثم استطردت تقول في مرارة :
« شد ما أود أن أظل ممسكة بك حتى أيت معي ! .. وإن



وفي خطوات وثابة ، كان يقف الى جانبها ،
وبعضها الى صدره في قوة ! ..

يشرتها الشاحبة أربعة خطوط زرقاء عميقة ! .. واستطرد
يقول في وحشية :

— هل تملك شيطان حتى تخاطبيني على هذا النحو وأنت
مشرقة على الموت ؟ .. وهل قدرت أن كلامك جميعا سوف
تظل مطبوعة في ذاكرتي . ولا تفتا تحفر فيها وتزداد عمقا بعد
أن تكوني قد تركني ؟ .. إنك لتعلمين مسدى كذبك عندما
تقولين إنني تظنك . وإنك لتعلمين ، ياكاثرين ، أنني أستطيع
أن أنساك إذا ما استطعت أن أنسى كياني ووجودي .. أفلا
يكنى أثنائك الجبنية أنك بينما تنعمين بالراحة والسكينة ،
سوف أتلوي أنا في عذاب الجحيم ؟

« فأجابت كاثرين في آئين اليم : « ولكني لن أنعم بالراحة
أو السكينة » .. وعادت إلى الشعور بضعفها البدني عندما
أخذ قلبها يخفق في عنف ، وفي ضربات غير منتظمة كانت ترى
وتسمع من بعد ، من جراء الانفعال الشديد الذي استبد بها
.. فكنت عن الكلام ريثما انقضت تلك الأزمة ، ثم استطردت
تقول في رقة :

— إنني لا أتمنى لك عذابا أشد مما أقاسيه يا هيثكليف .
كل ما أتمناه هو ألا نفترق قط . ولو ضايقك وأكرمتك كلمة
من كلماتي فيما بعد ، فاعلم أنني أحس هذا الكرب نفسه في
قبري .. فاصفح عني ، من أجل خاطري ! .. تعال هنا
واركع بجانبى ثانية . إنك لم تسئ إلي في حياتك قط . وإذا
أعنت في غضبك علي ، فإن ذلك سوف يكون أسوأ ذكرى لك ،
بما يفوق ذكرى كلماتي العنيفة . هلا أقيت إلى جانبي ؟ ..
تعال .. تعال !

أبالى بما تعانيه من ألم .. بل لست أبالى شيئا بألامك جميعا .
ولماذا بربك لا تعذب ولا تتألم ؟ .. لقد تعذبت أنا وذقت ألوان
الألم .. ثم هل تراك تنساني ؟ .. هل ستكون بعيدا عندما
أكون تحت أطباق الثرى ؟ هل تراك تقول بعد عشرين عاما :
« هذا قبر كاثرين إيرنشو . لقد أحببتها منذ عهد بعيد ،
وشقيقت بفقدائها ، ولكن ذلك قد مضى وانقضى .. فقد أحببت
الكثيرات منذ ذلك الحين » وأطغالى الآن أحب إلى نفسي مما
كانت هي في يوم من الأيام . وعندما تحين ساعتى - فلن يسرنى
أنى ذاهب إليها ، بل سوف يسوؤنى أن أضطر إلى تركهم ! ..
.. هل هذا ما ستقوله يا هيثكليف ؟ » .

« فانتزع رأسه من قبضتها في عنف . وكانت أسنانه
تصطك وهو يصيح : « بربك لا تعذبني حتى يصيبني الجنون
كما أصابك ! » .

« كان الاثنان ، في نظر المشاهد العادي - يمثلان صورة غريبة
مخيفة .. وكان يخلق بكاثرين أن تقدر أن السماء سوف تكون
منفى رهيبا لها « ما لم تطرح عنها — مع جسدها الثاني —
نفسيتها المعنوية أيضا .. فقد كانت أسارىها الآن تحمل
طابعاً من الحقد والخفية في وجنتيها الشاحبتين ، وشقيقتها
الباهتتين ، وهينيتها اللتين تتقدان بشرر الانتقام ! .. وكانت
تطبق أصابعها على خصلة من غذاره الثرى كانت تمسك بها .
أما رفيقها فقد أتكأ ، عند نفوذه ، على إحدى يديه ، وأمسك
بذراعها الأخرى ، فلما رفع يده عنها أدركت أن حصيلته من
الركة التي تستلزمها حالتها كانت من التلة بحيث كان على

سوف يتبدل عما قريب .. وسوف أكون أنا التى أرى لحالك ..
.. سوف أكون بعيدة عنكم اشرف عليكم جميعا من عل ..
واستطردت تحدث نفسها :

— كم أعجب من تباعده ، وإجباره عن الاقتراب منى ! ..
انا التى حسبته يرغب فى ذلك ويتمناه ! .. هيثكليف ،
يا عزيزى .. ما ينبغي لك ان تكون غاضبا عيوسا الآن ..
تعال إلى يا هيثكليف !

وفى غيرة لهفتها وشوقها نهضت واقفة ، وهى تستند إلى
ذراع مقعدها .. وإزاء هذه الدعوة الحارة ، استدار نحوها
وقد لاحظت فى أساريره إشارات اليأس المرير ، وكانت عيناه
الواسعتان تزدبان بالدموع ، وتهدجانها بنظرات وحشية ،
وصدره يعلو ويهبط فى رجفات متتابعة .. ولبثا لحظة وقد
جسد كل منهما فى مكانه .. ولم أر كيف التقيا بعد ذلك .
ولكن كاثورين وثبت إلى الأمام ، غلقاها بين ذراعيه ، والقدسما
فى عناق طويل ظننت ان سيدتى لن تخلص منه على قيد
الحياة قط .. والواقع أنها بدت فى عيني كأنها غقدت الشعور
.. والقى هو بنفسه على أقرب مقعد إليه ، وهو يحيطها بين
يديه ، فلما اقتربت فى عجلة لأتبين إن كانت مغشيا عيوسا ،
كشّر عن أنفاسه فى وجع ، وانفق الزبد من فمه كالكلب
المسور : وراح يضمها إلى صدره فى غيرة بشعة .. ولم أعد
اشعر بأننى فى رفقة مخلوق من البشر مثلى « وكان من الواضح
أنه لن يفهمنى فيها خاطبته وقلت له : « هذا الذى حدث معانا
وامسكت لسائى ولذت بالصمت فى حمة شديدة .. »

« فعاد هيثكليف ثانية ، ولكنه وقف خلف مقعدها ،
وانحنى فوق ظهر المقعد قليلا ، إلى الحد الذى لا يمكنها
معه أن ترى وجهه الممتنع من التناثر والانفعال ..
وأدارت رأسها إلى الوراء لتتظر إليه ، ولكنه لم يكن يسمح
لها بذلك .. فقد تحول بقة ، ودار نحو المدفأة . حيث وقف
صامتا وقد أدار ظهره نحونا .. وتبعته نظرات مسز لينتون
فى ترقب وارتباب .. وكانت كل لحظة تمر توقظ فيها
أحاسيس جديدة .. فلما طال الصمت ، واستطالت نظراتها ،
استطردت تخاطبني فى نبرات مليئة بمرارة الخيبة :

— آه ! .. أرايت يا نللى كيف انه لا يريد ان يرق لى لحظة
ليحول بينى وبين القبر ! .. هذا هو مبلغ حبسه لى ! ..
حسنا .. لا بأس .. إن هذا ليس هيثكليف الذى أعرفه !
.. ولكنى سوف أظل أحب هيثكليف الذى أعرفه ، وسوف
أأخذه معى فإنه قطعة من روحى !

« ثم أضافت كأنها تفكر بصوت مسموع :

— ثم إن أشد ما يضايقنى الآن هو هذا السجن المحطم —
جسدى — الذى أعيش فيه . لقد تعبت من ملول احتباسى
هنا .. وأود بصبر نائد أن أفر إلى ذلك العالم الجديد ، وأن
أظل هناك أبدا ، فلا اقتصر على النظر إليه من وراء غلالة من
الدموع ، والحنين إليه من خلال جدران قلب مضى ، وإنما
أبقى فيه وأعيش معه حقا ! .. ولعلك يا نللى تخالين أنك
أفضل منى وأسعد حالا ، لأنك فى عنفوان قوتك وكامل صحتك !
ولعلك تأسفين من أجلى وترثين لحالى ! .. ولكن كل شئ

وما لبثت أن سكن جأثي قليلا عندها رايت كاثرين تبدر
بمنها حركة صغيرة .. فقد رغبت يدها لتجذب إليها عنقه .
وتلصق خدها بخده وهو يحتسبها .. بينهما راح بدوره
يبلرها بقبلات جنونية ، وهو يقول في ضراوة :

— لقد علمتني الآن كيف كنت قاسية ياكائي .. قاسية
ومنافقة ! .. فلماذا احتقرتني ؟ لماذا خدعت قلبك وغدرت
به ؟ .. إنك لن تسبى منى كلمة واحدة تسرى عنك ، فإني
تستحقين ذلك .. أنت التي قتلت نفسك .. أجل .. لك
أن تغيبيني ، وأن تدفني ما شئت من الدموع .. ولك أن
تنزعني مني القبلات والعبرات .. فإنها سوف تلغحك بفارها
.. وسوف تلعنك بكل قطرة فيها ! .. لقد كنت تحبينني ..
فباي حق ، إذن ، هجرتني ؟ .. باي حق تخليت عني من
أجل وهم تافه شعرت به تحسوا لينتون ؟ .. فلا الشقاء
أو الهوان أو الموت ، ولا أي شيء مما يمكن أن يصيبنا به الله
أو الشيطان ، كانت لتستطيع أن تفرقي بيننا .. ولكنك فعلت
ما تعجز عنه كل هذه القوى . وفعلته بملء إرادتك .. إنني لم
أحطم قلبك . أنت التي حطمته بيدك .. وعندها حطمته .
حطمت قلبي معه ! .. إنك ترينني قويا متين الأسر . ولكن
ذلك لتعس حظي .. فهل تخلفيني أتمنى الحياة طويلا ؟ ..
وأي نوع من العيش ذلك الذي يمكن أن أحياء ، بيتا أنت ..
آه ! يا الهى ! .. أترك أنت تمنين العيش بيننا روحك في
قبر من القبور ؟

فشرقت كاثرين بدموعها ، وبأنينها ، وقالت :

— دعني وحدي .. دعني وحدي .. إذا كنت قد أخطأت ..
فهأنذا أكثر عن خطئي بالموت . وهذا فوق ما يكفيك ! ..
لقد هجرتني ، أنت أيضا .. ولكني لن أعاتبك أو أعنف
عليك .. إنني أصفح عنك .. فأصفح عني !

— ما أصعب الصفح وأنا أنظر إلى هاتين العينين ، واتحسس
هاتين اليدين الناعمتين ! .. قبليني ثانية ، ولكن لا تدعيني
أرى عينيك ! .. لقد غفرت لك كل ما فعلته بي .. فأنني
أحب قائلتي ! .. ولكن قائلتي أنت ! .. كيف يمكنني أن أحبه ؟
وساد الصمت بينهما ، وأخفني وجه كل منهما في وجه
الأخر ، وغسلت دموع كل منهما وجه صاحبه .. وأغلب
الظن أن البكاء كان متبادلا بينهما .. فإن هيكليف كان خليقا
بأن يبكي في مناسبة عظيمة كهذه ..

وبدا القلق يتسرب إلى نفسي ، كلما مضى الوقت .. فقد
كان النهار يمر سريعا ، كما عاد الرجل الذي كنت قد بعثت
به إلى القرية ، من مهمته ، وبدأت أميز من بعد ، في أشعة
الشمس ناحية الغرب فوق الوادي ، جماعات من الناس
تتكاثرون وتتكاثر عند باب كنيسة الجيرتون ، فقلت :

— لقد انتهى القداس ، وسوف يكون سيدي هنا بعد
نصف ساعة ..

فزجر هيكليف باللعنات والسباب ، وشد من عناقه
لكاثرين ، ولكنها لم تتحرك قط .. ولم تمض هنيئة ، حتى
رايت جمعا من الخدم يجتازون الطريق نحو الدناح الذي
يقع فيه المطبخ .. ولم يكن مسترا لينتون بعد عنهم كثيرا

وهو يسير خلفهم .. وفتح بنفسه البوابة الكبيرة ، وأخذ يسير في بطن واسترخاء قادما نحو المنزل .. ولعله كان يستمتع بهواء العصر الجميل الذي كان يترقق كنسيمات العيف ..

عندئذ هفت قائلة :

— ها هو ذا قد حضر .. فاسرع بالانصراف بحق السماء .. إنك لن تجد أحدا على الدرج الأمامي .. فاسرع بالخروج ! واختف برهة بين الأشجار ريثما يدخل المنزل . حتى لا يراك .. فقال هيثكليف وهو يحاول الخلاص من بين ذراعي رفيقته :

— لا بد لي من الذهاب الآن يا كاثي .. ولكن إذا قدر لي أن أعيش فسوف أراك ثانية قبل أن يهين موعد نوبك .. لن أذهب إلى أبعد من خمس ياردات عن نافذة حجرتك .. فخشيت به بقدر ما سمحت لها قواها الخائرة ، وهي تجيبه :

— كلا .. لا ينبغي أن تذهب .. ولن تذهب ..

فتوسل إليها في قلق :

— ساعة واحدة فقط !

— ولا دقيقة واحدة !

فازداد الدخيل القلق إلحاحا ، وقال :

— بل لا بد لي من الذهاب .. سوف يأتي لبنون إلى هنا

حالا ..

ولقد كان بوسع أن يهضم ، وبذلك يتخلص من قبضة أصابعها ، ولكنها ازدادت به تعلقا وازدادت أصابعها به تشبعا ، وقد لاح في أساريرها عزم رهيب جنوني ، ثم صرخت قائلة :

— كلا .. لا تذهب .. لا تذهب ! .. إنها المرة الأخيرة .. ولن يقتلنا أذجار .. هيثكليف .. إنني سوف أموت .. سوف أموت ..

فصاح هيثكليف ، وهو يفوض في مقعده :

— يا لك من حماة ! .. ها هوذا .. صه يا جيبتي .. اسكني ياكثيرين ! .. سوف أبقي .. وإذا أطلق على الرصاص وأنا جالس في مكاني ، للفظلت أنفاسي الأخيرة ، وشفتاي تباركانه !

وعادا إلى عناقها من جديد .. وسمعت وقع خطوات سيدي فوق الدرج ، فتصيب العرق البارد من جيبتي ، واستبد بي الفزع ، وقلت لهيثكليف ضارعة :

— هل تنوي أن تصغي إلى هذياني ؟ .. إنها لا تعرف ما تقول .. قيل تدمرها وتقتضي عليها ، لأنها لم يعد لديها من العقل ما تحمي به نفسها ؟ .. انهض .. فما زالت في الوقت فسحة لخلاصك .. إن هذا شر عمل شيطاني ارتكبته في حياتك قط .. لقد قضى علينا جميعا .. السيد ، والسيدة ، والخادمة !

وكنت أعصر يدي ، وانشج بالبكاء .. وسمع مستر لينتون تلك الضجة ، فأسرع الخطى .. وفي غمرة اضطرابه وانفعالي ، سررت إذ رأيت ذراعي كاثرين تنهوان من مسترخيتين بجانبها ، ورأسها يميل إلى الأمام .. فقلت لنفسي :

— لقد أغنى عليها ، أو ماتت ! .. وذلك أفضل كثيرا ..

ولكن الأفضل منه أن تكون قد ماتت ، حتى لا تمضي طويلا عينا على من يحيطون بها ، مجلبة للشقاء إليهم

وانقض ادجار على سيفه المتطفل . وقد امتنع وجهه دهشة وغضباً .. ولست أدري ما الذى كان يجرى أن يفعله .. فقد وضع الآخر حدا لكل ما كان يمكن حسوئه : بأن وضع بين يديه ذلك الجسد الساجى الذى يبدو خلواً من الحياة ، قائلاً :

— انظر إليها .. وإذا لم تكن شيطاناً أو عدواً لدوداً ، فاسمها أولاً ، ثم قل لى بعد ذلك كل ما تشاء .. واسرع يقادر المكان ، ويجلس فى حجرة الجلوس .. ودعائى مستر لينتون ، فرحنا بهذا الجهد المضمية ، ونلجأ إلى شتى الوسائل ، لنعيد لها إلى العوالم ، حتى نجعلها فى إقامتها أخيراً .. ولكنها كانت ذاهلة اللب .. كانت تن وتناود .. ولكنها لم تعرف أحداً .. ونسى ادجار ، فى غمرة ظلمة عليها . صديقها البغيض .. أما أنا فلم أنس .. فانتهزت أول فرصة سنبحت لى ، ومضيت إليه فرجوته أن ينصرف ، مؤكدة له أن كاثارين أحسن حالا ، وأنه سوف يسمع منى فى الصباح كيف قضت ليلتها .. فقال :

— إننى لن أمتنع عن مغادرة الدار .. ولكنى سوف أبقى فى الحديقة .. وأرجوك يا نللى أن تبرى بوعذك غداً .. وسوف تجديننى تحت أشجار الحور .. فإذا لم تغلنى فسوف أقوم بزيارة أخرى سواء أكان لينتون هنا أم لم يكن !

وألقي نظرة سريعة نحو باب الحجرة المنفرج . وإذا استوتق من أن ما ذكرته له كان يبدو صحيحاً ، غادر المنزل فى خطوات سريعة ، وأخلاه من محضره المنكود ..

الفصل السادس عشر

حوالى منتصف تلك الليلة ولدت كاثارين التى رابتها فى مرتفعات ويفرنج .. ولدت هزيلة ضامرة فى الشهر السابع من حملها .. وبعد مولدها بساعتين ، لفطت الأم أنفاسها الأخيرة ! .. ماتت دون أن تسترد من الوعى ما يكفى لأن تفتقد عنيكف . أو تشعر بوجود ادجار .. وكان حزن هذا الأخير لما أسابه من التكل ، أمراً يجلب عن الوصف ، وتالم النفس للحديث عنه .. كما أظهرت آثاره بعد ذلك مدى عمقه فى نفسه . وفى رأى أن ما زاد من غداحة المصائب لديه : أنه ترك بغير عتب من الذكور . وكان قلبى يعتصر حسرة والمأ لذلك . وأنا أأمل البنية الضعيفة ، فرحت أنجى باللائمة — فى نفسى — على لينتون المعجوز الذى أوصى بأن تنتقل أملاكه . إذا عرضت مثل هذه الحالة ، إلى ابنته بدلا من حفيته .. وهكذا جاءت الطفلة المسكينة ، فلم تلق من أحد ترحيباً . ولم يبش لمولدها إنسان .. فلو أنها ماتت فى تلك المساعات الأولى لها فى الوجود ، لما اكترت لذلك أحد قط . وقد عوضنا هذا الإهمال غيباً بعد ، ولكن المنكودة استبليت وجودها بغير صديق ، مثلما يخشى أن تختتمه !

وتسلل ضوء الصباح — الذى كان مشرقاً بهيجاً خارج الدار — من ثلثيا مصاريع نوافذ الحجرة الضيقة ، فاضفى على الفراش وشاغفته وهجا رقيقاً . وكان ادجار لينتون

وروحته ، ولا السرور في عفوانه ووغرته .. وقد تبينت في تلك المناسبة مبلغ الأثرة والانانية في حب مثل حب مستر لينتون ، عندما يحزن على خلاص كاثرين السعيد !! .. ومن المحقق أن المرء قد يشك أحيانا « بعد تلك الحياة المليئة بالعناد والمشاكسة والتهور التي كانت تحياها ، غيما إذا كانت تستحق أن تقاد أخيرا إلى مرغى السلام والطمانينة .. إن المرء قد يشك في ذلك في سويعات التفكير الهادئ المجرد عن العاطفة ، لا في ذلك الوقت ، أمام جماعتها .. فان السكينة التي كانت تروى على ذلك الجثمان المسحى ، بدت كأنها تضمن سكونة مماثلة للروح التي كانت تسكنه !

« ترى هل تعتقد يا سيدي أن مثل هؤلاء الناس يلقون السعادة في العالم الآخر ؟ .. إننى أبذل الكثير في سبيل معرفة ذلك .. »

ولكنى تفكيت الإجابة على سؤال مسز دين « الذى أدهشنى وقتئذ كئى أدنى إلى الضلالة .. فاستطردت تقول :

« إننا لو اقتنينا سبيل كاثرين لينتون ، لما حق لنا أن نظننا سعيدة .. ولكننا سوف ندعها لخالقها .. كان السيد يبدو نائما ، نجارفت بمغادرة الحجرة بعد شروق الشمس مباشرة ، وفسلت إلى حيث الهواء النقى المنعش خارج الدار .. وحسبني الخدم قد خرجت لأنفسي عنى التعاس بعد حراستى الطويلة « ولكنى في الحقيقة إنما خرجت لأرى مستر هينكليف .. فلو أنه مكث بين أشجار الجور الليل بطوله ، لما سمع شيئا من الجلبة التي قامت في (الجراج) .. اللهم إلا إذا كان قد

يضع رأسه على الوسادة ، مطبق العينين ، ومحباه الناصع البياض يبدو - في شحوب الموت الذى يعلوه - أشبه بالوجه الناجى إلى جواره ، وقد تماثلا سكونا وجهودا .. ولكن أساريه كانت تنطق في جهودها بالألم المضى ، على حين كان وجه الراحلة يفيض سلاما ودعة . كان جبينها ناعما وضاء ، وأجفانها مطبقة ، وشفتاها تنفرجان في ابتسامة هادئة .. وما أحسب أن أيا من ملائكة السماء كان يمكن أن يبدو أوفر منها جمالا .. وثالنى قيس من ذلك السكون المطلق الذى يحيط بها في رقادها ، فما أحسست قط بأن عقلى عاش في إطار أشد قداسة مما كان عليه عندما رحت أقابل تلك الصورة الصافية من الراحة الإلهية ! .. ورحت أرجع في نفسى ، عن غير قصد ، صدى الكلمات التي نطقت بها منذ ساعات قلائل ، قلت : « إنها بعيدة عنا تشرف علينا جميعا من عل .. وسواء أكانت لا تزال على الأرض ، أم أنها الآن في السماء ، فإن روحها قد رجعت إلى مستقرها ومثاها عند خالقها » .

ولست أعرف إن كانت تلك صفة اختصت بها ، ولكن الواقع أننى قلها أحس شيئا غير السعادة عندما أقوم وحدى بالحراسة في حجرة يرغرف عليها الموت ، ما لم يقاسمنى هذا الواجب شخص خرج به الحزن عن صوابه أو ملئ قلبه بنسا .. فأنى أرى راحة وطمانينة لا تستطيع الأرض ولا الجحيم أن تحطوما ، وأحس باليقين في عالم يأتى بعد ذلك ، لا نهاية له ولا ظلمات فيه .. تلك الأبدية التي يلجون أبوابها ، حيث لا تنقيد الحياة بحدود في مدتها ومداه ، ولا الحب في حلاله

سمع وقع حوافر جواد الرسول الذى بعثنا به إلى (جيمرتون)
 .. ولو أنه اقترب من الدار ، لأدرك من الأضواء المنقطة هنا
 وهناك ، والأبواب الخارجية وهى تفتح وتغلق : أن الأمر لم
 يكن على ما يرام فى الداخل . وكنت أود أن أجده . ومع ذلك
 كنت أخشى هذا اللقاء .. كنت أحس بشناعة الأبناء التى يجب
 أن أنظفها إليه ، وتمنيت أن ينتهى ذلك الموقف سريعا ، ولكنى
 لم أكن أعرف كيف أقولها له ! .. ووجدته هناك ، على قيد
 خطوات من البستان ، مستندا إلى شجرة عتيقة ، عارى
 الرأس ، ملبد الشعر بالندى الذى تجمع على الفصوص المورقة
 حديثا ، والذى كانت قطراته تتساقط حوله .. وكان قد
 قضى فترة طويلة فى وقتله هذه : لئننى رايت طائرين يذهبان
 ويعودان ، وليس بينهما وبينه إلا زهاء ثلاثة أقدام ، وقد
 انهكما فى بناء عشهما « ولا يريان فى قربه منها إلا ما يريان فى
 كتلة من الخشب » على حين انقلبا هاربين عند اقترابى ..

ورفع عينيه نحوى « وقال :

— لقد ماتت ! .. ولم أكن بحاجة إلى انتظارك لأعرف ذلك
 .. ضعى منديلك هذا جاتبا ، ولا تدعى دموعك ومخاطك
 يسيلان أبدا ! .. لعنة الله عليكم جميعا .. إنها ليست فى
 حاجة إلى شيء من دموعكم !

كنت أبكى رثاء لحاله بمثل ما كنت أبكى عليها .. غائتا أحيانا
 نشفق على مخلوقات تجردت من مثل هذا الشعور سواء
 بالنسبة للناس أو لأنفسها .. وعندما وقعت أنظاري على
 وجهه للمرة الأولى أدركت أنه علم بالكارثة .. وطرات لى فكرة



وجدته هناك ، على قيد خطوات من البستان ، مستندا

إلى شجرة عتيقة عارى الرأس ، ملبد الشعر بالندى الذى

سخيفة ، هي أن قلبه قد غشيته السكينة فراح يصلى . إذ كانت شفاهه تتحركان في تهمة صامته ، وقد أحمر رأسه كأنها ركعت انظاره على الأرض .. غفلت وقد كتمت شفتائى وجفت عبرائى :

— أجل .. لقد ماتت .. وأرجو أن تكون قد ذهبت إلى السماء ، حيث يمكن أن نلحق بها ، كل واحد منا . لو أصفينا إلى صوت النذير ، وتركنا سبل الشر لنسلك سبل الخير ..

فسألنى هيثكليف فيها يشبه السخرية :

— وهل أصغت هى إذن إلى صوت النذير ؟ .. هل ماتت أشبه بتديسه ؟ .. هيا .. قصى على كل ما حدث . فى صدق ودقة .. كيف لقبت ..

كان يهم بأن ينطلق باسمها ، ولكنه لم يستطع التلغظ به . وكان وهو يضغط على شفتيه كأنها بصارع ، فى صمت . حزنه المكتون ، متحديا — فى الوقت نفسه — إشتاقى عليه ورثاى له ينظرات نارية ضاربة ، ومينين لا تطرفان .. وأخيرا اضطرب برغم صلابته ، إلى البحث عن متكأ خلفه ، إذ انتهى ذلك الصراخ بهزيمته وأخذت الرعدة تسرى فى بدنه حتى أخضع تقدمه . علم الرغم منه .. ثم تابع القول :

— كيف لقيت نهايتها ؟

فقلت فى نفسى : « أيها التمس المسكين ! .. إن لك قلبا وأعصابا مثل ما لأخوانك من بني البشر .. فلماذا تتلطف على إخفائها ؟ .. إن كبرياءك لن تخفى على الله ! .. وأنت بما ..

تدفعها إلى أن تظل تهمر قلبك وأعصابك ، حتى تنتزع منك عبرات الجوان والمذلة ! » .

ثم أجيته بصوت عال :

— فى هدوء الحبل الوديع .. تنهدت ثم بسطت جسمها . أشبه بطفل يصحو من نومه ، ثم يعود إلى الاستغراق غيه ثائية .. وبعد خمس دقائق أحسست بقلبها يخفق خفقة واحدة ، ثم يسكن إلى الأبد !

فسألنى مرودا : كأنها يخشى أن تتضمن إجابتى أشياء لا يطيق سماعها :

— هل .. هل لم تذكر اسمى قط ؟

— إنها لم تستعد حواسها ، ولم تعرف أحدا ، منذ أن فارقتها .. وهى ترقد الآن وعلى وجهها ابتسامة حلوة ، كأنها كانت خواطرها الأخيرة تسرح فى أيامها البهيجة الأولى .. لقد ختمت حياتها فى حلم رقيق ، وأدعو الله أن تقوم من الموت بمثل هذه الدعة فى العالم الآخر ..

فصاح فى انفعال مروع ، وهو يضرب الأرض بقدمه ، وبزجر فى نوبة مفاجئة من العاطفة الجامحة :

— بل غلقتم فى عذاب الجحيم ! .. لماذا ؟ .. لقد كانت كاذبة حتى النهاية .. أين هى ؟ .. إنها ليست هناك فى المنزل .. وليست فى السماء .. ولم يشملها الفناء .. فأين هى ؟ أود بأكثرين ، لقد قلت إنك لا تبالين بالآلام .. أنا أدعو

الله دعاء واحدا - سأظل أردد حتى يجف لساني - فلا عهدت
الراحة والسلام ، يا كثيرين إيرنشو ، ما دمت حيا .. وقد
قلت إننى قتلتك .. فلتلزمى روحك إذن لتقض مضجعى ! ..
أن روح المقتول لا تنفث تصوم حول قاتله ، كما أعتقد ..
والأشباح قد رؤيت تجوب الأرض ، فيما أعلم .. فكونى معى
دائما ، على أية صورة تتراءى فيها .. وادفعى بى إلى
الجنون ! .. ولكن لا تتركينى فى هذه الهاوية ، حيث لا أستطيع
أن أجدك معى .. آه ! .. يا الهى ! .. هذا شيء يقتصر عنه
النطق ! .. إننى لا أستطيع العيش بغير حياتى .. ولا أستطيع
الحياة بغير روحى ..

ثم أخذ يضرب رأسه بجذع الشجرة الخشن ، ثم يرغم
عينيه ويطلق عواء لا يشبه أصوات البشر فى شيء ، وإنما هو
أشبه بعواء وحش كاسر يتمشى إليه الموت تحت طعنات المدى
والحراب .. ولاحظت رشاشا من الدماء على لحاء الشجرة ،
كذلك كان جبينه ويده ملوثة بالدم .. والأرجح أن المنظر
الذى شهدته لم يكن إلا تكرارا لما كان يجرى خلال الليل ..
ولكنه لم يثر فى نفسى رجوة أو شفقة ، وإنما كان يخيفنى
ويروعنى .. وبرغم ذلك فقد أنفت أن أتركه على هذه الحال ..
ولكنه فى اللحظة التى استرد فيها من الوعى ما يكفى لأن يدرك
أننى أراقبه « صاح بى فى صوت كقصف الرعد ، يأمرنى
بالانصراف .. ولقد أطلعت على الفور ، إذ كان مما تعجز عنه
قدرتى أن أهدى روعه أو أسرى عنه ..

وحدد موعد جنازة مسز لينتون فى يوم الجمعة القالى لوفاتنا

.. وظل نعثها ، حتى ذلك الموعد ، مكتسوبا وقد نثرت غوثه
الزهور وأوراق الأشجار العطرية « فى حجرة الاستقبال
الكبرى .. وكان لينتون يقضى الأيام والليالى بجواره ، حارسا
لا يغفل ولا يثام .. أما الشيء الذى خفى عن الجميع ، ما عداى ،
فهو أن هيفكليف كان يقضى الليالى ، على الأقل ، فى الحديقة
وقد حرم من الراحة كادجار .. ولم أكن على أى اتصال به ،
ومع ذلك كنت أدرك رغبته وعزمه على الدخول ، إذا تهيأت
له الفرصة المواتية .. فما أن حل مساء الثلاثاء ، وأسدل
الظلام ستوره ، واضطر سيدى لفرط تعبها أن يأوى إلى
فراشه نحو ساعتين ، حتى مضيت لمفتحت إحدى النوافذ ،
وقد تأثرت من مثابرتة على البقاء فى الحديقة ، لاهبى له فرصة
يلقى فيها على وجه معبودته الشاحب نظرة وداع أخيرة ..
ولم يغفل انتهاز هذه الفرصة ، فى حذر ولفترة قصيرة .. بل
لقد كان من الحذر فى دخوله ، دون أى صوت أو جلبة ،
بحيث ما كنت لأكتشف حضوره ، لولا أن وجدت الغطاء قد
أخلل نظامه حول وجه الجثة ، وأن لاحظت على الأرض بجوار
الفراش خصلة من الشعر الذهبى قد حزمت بخيط من الفضة ،
ما كنت أفحصها حتى أدركت أنه أخذها من نوط كان معلقا
حول رقبة كاثرين .. كان هيفكليف قد فتح القلادة وألقى
بمحتوياتها على الأرض ، ووضع بدلها خصلة من شعره الاسود
.. ولكنى حزمت الاثنتين معا ووضعتهما فى القلادة سويا !

وقد دعى مستر هندلى إيرنشو لنشيع جثمان شقيقته
إلى مقرها الأخير ، ولكنه لم يحضر **وله يوميل اعتبارا !**

وهكذا كانت الجنازة قاصرة ، فيها عدا زوجها ، على المستأجرين والخدم فحسب .. أما ايزابيلا فلم يدعها أحد ..

ولقد دهش القرويون إذ رأوا أن كاثرين لم تدفن في صحن الكنيسة تحت النصب المنقوش الخاص بآل لينتون ، ولا في مقابر أهلها خارجه .. وإنما دفن جثمانها في قبر منفرد ، على سفح تل منحدر يغطيه العشب الأخضر ، في ركن قصي من فناء الكنيسة ، بجوار السور الذي كان منخفضا في ذلك الموضع بحيث زحفت على القبر الأعشاب المتسلقة ونبتات التوت البري الممتدة من منطقة الأحراش والبراري ، حتى كانت تغطيه تماما ..

وفي البقعة نفسها يرقد زوجها الآن ، وعلى قبر كل منهما شاهد بسيط ، وقد أقيمت عند أقدامها كتلة مراء من الحجر الأسمر لتمييز موضع القبرين .

الفصل السابع عشر

كان يوم الجمعة المشؤم - يوم وسدنا كاثرين الثرى - آخر عهدنا بالطقس الجميل ، طيلة شهر كامل .. ففى مساء ذلك اليوم انقلب الجو بفترة ، وهبت الرياح من الجنوب نحو الشمال الشرقي ، فاخذت ترضي حملها من المطر الغزير بادئ ذي بدء ، ثم قطع البرد الصلبة ، وأخيرا رقائق الثلج الهشة الناصعة البياض .. حتى إذا أصبحنا في الفداة ، كان من العسير أن يتصور إنسان أننا قضينا ثلاثة أسابيع في جو شبيه بإيام الصيف .. فقد اختفت الأمانى والزهور البرية تحت ركام الطلوج المتدفقة ، وسكنت القنابر عن شدوها الصداح ، وذبلت أوراق الشجر الوليدة وأسود لونها .. وهكذا طلع علينا ذلك الصباح باردا ، موحشا ، كئيبا ..

كان سيدى معتكنا في حجرته ، أما أنا فقد احتللت حجرة الجلوس الوحيدة ، وحولتها إلى دار للحضائنة ! .. وكنت جالسة فيها ، وفوق ركبتى تلك الطفلة الشبيهة بدمية صغيرة لا تكف عن الأنين ، وقد أخذت أهددها وأهزها بينة ويسرة ، وأرقت بين الفينة والفينة رقائيق الثلج التي كانت لما تنزل تنهيم فوق أغصان النافذة المجردة من الستائر ، وترتفع فوقه طبقة بعد طبقة ، عندما فتحت الباب ، ودخل شخص من مبهور الأنفاس ، يضحك بصوت عال ! .. وقد طغى سخطى وغضبى على دهشتى لحظة قصيرة ، إذ حسبت القادم واحدة من الخدم ، وصحت بها متعجبة :

— حسبك وكفى ! .. كيف تجرؤين على إظهار طيشك ومجونك هنا ؟ .. ماذا يقول مستر لينتون إذا سمعك ؟ ..

فأجابني صوت مألوف :

— أرجو المذرة ! .. ولكنى أعلم أن ادجار في فراشه الآن ، كما غلبني الضحك ولم أستطع إيقافه ..

وإذ نطقت المتحدث بهذه العبارة ، تقدمت نحو المذاة ، وهي تلهث بأنفاسها وقد وضعت يدها على جنبها .. وما لبثت أن استطردت بعد صمت قصير :

— لقد ظلمت أجرى طول الطريق من « مرتفعات ويلونج » إلى حيث كانت السيول تدغمني وتغمرنني .. فليس في وسعي أن أحصى عدد المرات التي وقعت فيها .. أو أه ! .. أن كل ما في بدني يخزني ويؤلمني .. ولكن لا تنزعج ! .. سوف أشرح لك كل شيء بمجرد أن أجد في نفسي القدرة على الكلام .. وكل ما أرجوه الآن هو أن تأمرى بإعداد العربة لتقلني إلى جيبرتون ، وأن تطلبني من إحدى الخدء إحضار بعض الثياب لي من خزانة مالايسى ..

كانت القادمة ، كما أحسبك قد أدركت ، هي مسز هينكليف (ايزابيلا) .. ومن المحقق أنها لم تكن تبدو في حالة ثبور الضحك .. كان شعرها متهدلا على كتفها تتخلله ندف الثلج « ويقطر منه الماء .. وكانت ترتدى ثوبا من ثياب الفتيات التي اعتادت لبسها ، يلائم سننها أكثر مما يليق

بمركزها .. ثوبا طويلا ذا أكمام قصيرة .. كما لم تكن تغطي رأسها أو تضع وشاحا حول عنقها .. وكان ثوبها حريريا رقيقا الصقته البيل يجسها ، على حين كانت تقدمها لا يحبيها سوى نعل خفيف مفتوح .. وإلى جانب ذلك ، كان يمتد تحت أنفها جرح غائر لم يهل دون نزف الدم منه بفزارة سوى البرد القارس ، كما كان وجهها الناصع البياض ملبدا بالكدمات والخدوش ، وجسدها الناحل لا يكاد يقوى على التماسك من الإعياء والهزال معا .. ولك أن تتصور مبلغ فزعى الذي لم يخفف من حدته الوقت الذي انتقضى منذ أن وقعت أنظارى عليها حتى استطعت أن أغوصها في إيمان ، فصحت بها قائلة :

— أينما السيدة العزيزة .. إننى لن أتحرك من مكاني ! ولن أسمع منك كلمة واحدة أخرى ، حتى تنزعى كل قطعة من ثيابك ، وتستبدلى بها ثيابا جافة داثة .. ولا ريب أنك لن تذهبي الليلة إلى جيبرتون وأنت في هذه الحالة ، فلا داعى إذن لإعداد المركبة ..

— بل سوف أذهب حتما ، سواء ركبت أم مشيت ! .. ولكن لا اعتراض لدى على تبديل ملابسى والظهور بالمظهر اللائق .. و .. آه ! .. انظرى كيف بجري الدم فوق عنقى الآن ! .. إن حرارة النار تجعله لأذعا ليها !

وأصرت على أن أنفذ أوامرها قبل أن تسمح لى بأن المسها بيدي .. ولبثت حتى سمعنى من الخردى بإعداد

المركبة » وإحدى الوصيفات يلحزار ربطة من الشباب واللوازم الأخرى ، وعندئذ فقط رشيت بأن اقوم بتضميد جرحها ، ومساعدتها في استبدال ملابسها ..

وعندما فرغت من مهمتي ، اتخذت مجلسها على مقعد مريح بجانب الموقد ، وأمامها قدح من الشاي الساخن . ثم بدأت تقول :

— تعالى الآن يا ايلين ، واجلسي أمامي .. لكن أبعدى أولا بنت كاثارين المسكينة ، فليست أحب أن أراها .. ولا ينبغي أن تحسبيني قليلة الاكتراث لموت كاثارين بسبب مسلكي الأحق عند دخولي .. فقد بكيت ، أنا الأخرى ، برارة شديدة ، وكان لدى من أسباب البكاء أكثر مما لدى أي إنسان غري ، إذ افترقنا متخاصمتين ، كما تفكرين . ولن أغفر لأنفسى ذلك قط .. ولكنى برغم ذلك ما كنت بالتي تشاطره أحزانه ، ذلك الوحش المفترس .. آه ! .. تناوليني محراك النار ! .. هذا آخر شيء افقنته ، مما يمت إليه بصلة ..

ثم نزعنت خاتم الزواج الذهبى من أصبعي الثالث والوقت به على الأرض ، وراحت تدق عليه بالمحراك الحديدى ، متابعه الحديث :

— سوف أحطمه ، ثم أرمي به إلى النار ..

وشفعت القول بالنعل ، إذ تناولت الطيبة المشسوحة ووضعتها بين قطع الفحم المتوهجة ، واستطردت تقول :

— والآن .. عليه أن يشتري خاتما آخر ، إذا استطاع أن يدركنى ويعيدنى إليه ثانية ! .. وهو خليق بأن يحضر ليأخذنى من هنا ، لا شيء سوى إغاطلة ادجار والنيل منه .. لذلك لا أجرؤ على البقاء ، حتى لا تتملك هذه الفكرة رأسه الشرير ! .. ثم أن ادجار لم يكن بى شفوفا رحيمًا » اليس كذلك ؟ .. ولست بالتي تتياقت على طلب معونته ، ولا بالتي تجلب عليه المزيد من المتاعب .. وقد ألجأتنى الضرورة إلى أن أنشد المأوى هنا ، ولكنى لو لم أعلم أنه بعيد عن طريقي ، لليئت في المطبخ ريثما أغسل وجهي ، واستدفئ قليلا ، وأدعوك لفخضرى لى ما أحتاج إليه ، ثم لرحلت ثانية إلى أية بقعة في الأرض بعيدا عن متناول ذلك اللعين .. ذلك الشيطان المتجسد في بدن إنسان ! .. آه ! .. لقد كان في ثورة غضب جنونى ! .. ولو أنه أدركنى وأمسك بى ! .. من المؤسف أن هندلى ليس قريبا له في القوة والبأس ! .. ولولا ذلك لما رحلت قبل أن أراه يحى من الوجود ، لو أن هندلى كان قادرا على ذلك ..

فقاطعتها قائلة :

— حسنا .. مهلا يا أنسة ، ولا تنطلقى في الكلام بهذه السرعة .. فسوف تفسدين وضع المنديل الذى ربطته حول وجهك ، وتجعلين الجرح يدمى من جديد .. هيا أشرى الشاي ، والتقطى أنفاسك المتلاحقة ، واخلى عنك هذا الضحك .. فالضحك الآن لا يليق بهذا المنزلة المنكوب ، ولا بحالتك المؤسفة !

— هذه حقيقة غير منكورة يا ايلين ! .. ولكن اُصغى إلى هذه الطفلة .. إنها لا تكف عن النواح منذ قدومي .. غابعديا عن مسامعي ساعة أو بعض الساعة : نلن أمكت هنا طويلا ..

فقرعت الجرس ، وعهدت بالوليدة إلى عناية إحدى الخاديات .. ثم مضيت أسألها عما دفعها إلى التعجيل بالفرار من « مرتفعات وبلدنج » ، في مثل هذه الحالة القريبة ، وإلى أين تزمع الذهاب ، ما دامت تأبى البقاء معنا .. فاجابت :

— كان ينبغي ، بل لقد كنت أود ، أن أبقى لأسرى عن ادجار وأقوم على رعاية الطفلة المنكورة .. لهذين السبيين ولأن « الجرانج » هو بيتي الطبيعي الحق .. ولكني أوكد لك أنه لن يدمنى وشائى .. أتظنينه يطبق رؤيتى هنا ناعسة الببال ، تكتسى عظامى الناحلة باللحم ، أو يطبق مجرد التفكير فى أننا نعيش هنا فى هدوء وهناء ، ثم لا يصمم على أن يفت سمه فيقتضى به على راحتنا وسلامنا ؟ .. إننى الآن راضية مطمئنة إذ تحققت من كراهيته لى إلى الحد الذى يسوؤه فيه حقا أن يجدنى على مدى السمع أو مدى البصر .. كنت لاحظت عندما أمثل فى حضرته كيف تنقلص عضلات وجهه ، فى حركات لا إرادية ، معبرة عما يضرمد لى من حقد ، وما يكنه لى من بغضاء ، ينبعث بعضها من علمه بالأسباب القوية التى تدفعنى إلى الإحساس بمثل هذه اليقضاء نحوه ، وينشأ باقيا من نفوره الأصيل منى .. وهذه اليقضاء قد أضحت من القوة بحيث تجعلنى أشعر عن يقين بأنه لن يسعى ورائى أو يطاردنى فى أرجاء إنجلترا كلها ، إذا ما دبرت قرارا نهائيا : ولذلك

يجب أن أذهب إلى مكان بعيد .. ولقد شفيت تماما من تعلقى السابق به ، ورغبتى المافونة فى أن ألقى مصرعى على يديه .. بل شدد ما أود الآن أن يقتل نفسه بيده ! .. لقد قضى على حبى له ، وأطفا شعلته المتقدة « بحيث هذا بالى واسترحت ! .. ومع ذلك فما زلت أذكر كيف أحبته ، وما زلت أتصور كيف كان يمكن أن أقيم على حبه لو .. لا .. لا .. فحتى لو كان يقيم بى حبا ، فإن طبيعته الشيطانية كانت خليفة بأن تكشف عن وجودها على صورة ما .. ولا بد أن كاثرين كانت ذات ذوق منحرف إلى حد شفيغ حتى تنطسوى له على كل هذا القدر من التقدير والإعزاز ، برغم علمها حق العلم بطبيعته ، يا للوحش ! .. أرجو أن يسحو الله ذكراه من الوجود ، ومن ذاكرتى !

فقلت :

— صه ! .. صه ! .. إنه إنسان على أية حال .. ألا كونى أكثر انصافا وإحسانا ، فهناك رجال أسوأ منه بكثير برغم كل شيء ..

فردت على قائلة :

— ولكنه ليس إنسانا على الإطلاق ، ولا حق له فى شفقتى وإحسانى .. لقد وهبته قلبى ، فأخذته وظل يصره ويخنقه حتى قضى عليه ، ثم ألقاه إلى ثانية جثة هامدة ! .. ان الناس يحسون بظلوبيم يا ايلين « وما دام قد دمر قلبى ، فكيف يمكن أن أشعر نحوه بشيء .. »

أرأى لحاله ، ولو ظل ينن ويتأوه من اليوم حتى يوم مائه .
ويذرف الدموع دما على كاثرين .. كلا .. كلا .. لن أفعل
حقا ..

وعندئذ أخذت ايزابيل في التحيب ، ولكنها ما أن خرعت
بعض الدموع حتى كنكتت عبراتها واستطردت تقول :

— إنك سألتني عما دفعني إلى الفرار أخيرا ؟ .. لقد
اضطرت إلى هذه المحاولة ، لأننى أفلحت في إثارة غضبه بما
يفوق خبثه ولؤمه .. فإن انفraz الأعصاب من جنورها ،
بملاقط محماة في النار ، يحتاج إلى مزيد من البرود والهدوء
أكثر من الضرب واللطم فوق الرأس .. وقد ثارت ثائرتة حتى
نسى حذره الذي كان يفاخر به ، ولجا إلى العنف القتال ..
وملأنى السرور إذ استطعت أن أخرجه عن طوره ، فابتعد
السرور في نفسى غريزة المحافظة على الحياة ، وهكذا انطلقت
هاربة على الفور .. فلو عدت إليه يوما من الأيام ، وألتقيت
بنفسى بين يديه ثانية ، فإنى استحق أن ينتقم منى شـ
انتقام ..

وأنت تعلمين أن مستر أيرنشو كان يجب أن يحضر الجنازة
أمس .. وقد ظل محتفظا بوعيه وصحته ، ولم يقرب الخمر
لهذا الغرض .. فلم يذهب إلى الفراش ، كعادته ، في الليلة
صباحا فاقد الوعي ، ليقوم عند الظهر فيستأنف الشراب ..
وهكذا استيقظ مكتنبا بكاد الانتفاض يقتله ، لا يصلح للذهب
إلى الكنيسة إلا كما يصلح للذهاب إلى مرقص .. وبدلا من

هذا أو ذاك . جلس بجوار المدفأة وراح يجرع كؤوسا مترعة
من الجن أو البراندى ..

أما هينكليف — وإن بدنى ليقشعر عندما أنطق باسمه —
تقد ظل غريبا عن المنزل منذ يوم الأحد الماضى حتى اليوم ..
ولست أدري إن كانت الملائكة هى التى كانت تطعمه ، أم أخوه
من الجان في العالم السفلى ! .. ولكنه لم يتناول ذرة من
الطعام معنا زهاء أسبوع .. كان يعود إلى المنزل في الفجر ،
فيصعد إلى حجرته ويوصد بابها عليه ، كانا كان هناك من
يفكر في استياء رفقته ! .. وهناك يظل يصلى ويبتهل كأنه
من غلاة المتدينين .. ولكن المعبود الذى كان يبتهل إليه كان
من القراب والرماد ! .. وكان « الله » ، إذا دعاه مختلعا على
نحو غريب بأبيه الشيطان الأسود ! .. وبعد أن يتم هذه
الصلوات الثمينة ، التى كانت تطول عادة حتى يبح صوته
ويخفق في حلقه ، فإنه يبرح الدار لا يلوى على شيء ، فيمضى
تدما إلى الجراج .. وشد ما أعجب كيف أن أذجار لم يرسل في
طلب شرطى يقوده إلى السجن ! .. أما أنا ، فعلى ما كنت فيه
من حزن وأسى على كاثرين ، فقد كان من المستحيل أن أتحاشى
اعتبار هذه الفترة التى نجوت فيها من طغيانه المهين ،
كإجازة سعيدة !

واستعدت مرحى بما يكفى لسماع خطاب جوزيف الطويلة
الإبدية دون بكاء ، وللمضى في الدار ذهابا وجيئة في خطى
غير حطى اللص المذمور التى كنت أمشى بها من قبل ..
ولا أحسبك تظنننى خليقة بأن أبكى من شيء .. جوزيف ،

ولكنه وهيرتون شر رفقة يمكن أن يتلى بها إنسان .. ولخير لى أن أجلس مع هندلى ، واستمع إلى حديثه البتبع المروع ، من أن أجلس مع « السيد الصغير » ، وحاميه الأمين ، ذلك الشيخ المافون المرذول .. وعندما يكون هينكليف فى المنزل ، فأننى اضطر غالبا إلى الالتجاء إلى المطبخ فى رفقتها ، أو أرافق الجوع فى إحدى الحجرات الرطبة غير المدفأة .. أما إذا كان خارج الدار ، كما كان شأنه طوال هذا الأسبوع ، فأنى أقيم لنفسى منضدة ومقعدا عند ركن المدفأة بحجرة الجلوس ، ولا أبالى بما يفعله مستر إيرنشو ليشغل به نفسه ، كما أنه من جانبى لم يكن ليزج بنفسه فيما أتخذة أنا من ترتيبات . وهو الآن أكثر هدوءا مما اعتاد أن يكون ، ما لم يستغزه أحد أو يستثيره ، وأشد عبوسا واكتئابا ، وأقل غضبا وهياجاً .. ويؤكد جوزيف يقينه فى أنه أصبح رجلا آخر ، وأن الله قد مس قلبه ، وهكذا نال الخلاص كأنها « طبرته النار » .. وقد حيرنى أن استشف علامة واحدة من علامات هذا التبدل المزعوم ، ولكن ذلك ليس من شأنى فى شئ !

وكننت ليلة أمس أجلس فى ركنى المعهود ، أطالع فى بعض الكتب القديمة ، حتى ساعة متأخرة إذ أوشك الليل أن ينتصف .. وكان الصعود إلى الطابق العلوى يبدو بشعا مروعا ، مع تلك العاصفة الثلجية الضارية التى تهب فى الخارج ، ومع انطلاق أفكارى باستمرار نحو فناء « الكنيسة وذلك القبر الحديث البناء ! .. ولم أكن أجرؤ على رفع نظراتى من الصفحات المفتوحة أمامى ، لأن ذلك المنظر الحزين كان

يسارع إلى احتلال مكانها أمام عيني .. وكان هندلى يجلس فى الناحية الأخرى ، وقد أحنى رأسه واسندته إلى راحته ، ولعله كان يفكر فى ذلك الأمر نفسه ! .. وكان قد كف عن الشراب عند مرحلة لم تصل به إلى فقدان الصواب ، وجلس ساكنا لا يتحرك أو ينطق بكلمة نحو ساعتين أو ثلاث .. ولم يكن يسمع فى المنزل كله صوت ، غير ولولة الرياح التى كانت ترج النوافذ بين آن وآخر ، وغير طقطقة الفحم فى المدفأة ، أو طقات المقرائى كلها أزلت به ذبالة الشموع المحترقة .. أما جوزيف وهيرتون فالأرجح أنهما كانا يتعمقان بسببات عميق فى غرائسهما .. كان مجلسنا حزينا غاية الحزن ، وكننت خلال قراعتى ، أزرغر زفرات حارة ، إذ كان يبدو لى أن كل ما فى العالم من بهجة وسرور قد نضب معينه وتلاشى من الوجود ، ولن يعود إليه قط ثانية ..

وأخيرا مزق هذا الصمت الحزين صوت سقاطة باب المطبخ وهى تتحرك فى مكانها ، إذ بكر هينكليف فى عودنه من جولته الليلية عن المعتاد ، وأحسب أن العاصفة التى هبت فجأة كانت السبب فى ذلك .. ولكن باب المطبخ كان موصدا من الداخل بالمزاليج ، فسمعناه يدور حول الدار ليدخل من الباب الآخر .. عندئذ أتبعثت واقفة ، وعلى شفتى صيحة لم أستطع كتمانها ، كانت تعبر عما يخلج فى نفسى ، وحدثت برغبتي الذى كان يملق بأنظاره فى الباب إلى أن يستدير وينظر إلى ، قائلا :

— سوف أدعه واقفا في الخارج خمس دقائق أخرى . غيل
لديك مانع ؟

— كلا . . لك ان تدعه خارجا الليل بطوله من اجل . .
اسرع . . ضع المفتاح في القفل وادفع المزاليج وراء الباب . .
وفعل ايرنستو ذلك قبل ان يصل القادم إلى واجبة الدار .
ثم عاد وجذب مقعده نحو الجانب المقابل من المائدة امامي .
حيث استند إليه ، ومال نحوي ، وأخذ يتقيرس في عيني
متفحصا ، ليري ان كنت اشاطره ذلك الحقد التاري الذي كان
يتوهج في عينيهِ . . ولكنه كان يبدو ويحس كأنه قاتل بتاهب
للفتك بفريسته ، فلم يستطع ان يدرك مشاعري تباهي ، وإن
كان قد تبين منها ما يكفي لتشجيعه على الكلام . . فقال :

— ان لكلينا دينا عظيما لابد من اقتضائه من ذلك الرجل
الذي يقف خارجا . . فإذا لم يكن أحدنا جبانا رعيديا : . .
في وسعنا ان نوحّد جهودنا لاستخلاص هذا الدين . . غيل
تراك رخصة خاترة العزيمة كاخيك ؟ . . وهل تودين احتمال
ما تعاقبته حتى النهاية ولا تحاولين مرة واحدة ان تشاري
لنفسك ؟ . .

فاجبته :

— لقد اخفاني الاحتمال الآن ، ولسوف يسرنى ان اثار
لنفسى على نحو لا يرتد على وبالا . . ولكن الغدر والعنف
حراب ذات نصال مرهقة في كلا طرفيها ، وعلى تجرح أولئك
الذين يلجأون إليها بأشد مما تفعل بأعدائهم . .

فصرخ هندلى في وجهي قائلا :

— ان القدر والعنف هما الجزاء الحق للغدر والعنف ! . .
وإننى يا مسز هيثكليف لا أسألك ان تفعل شيئا ، بل اجلسي
ساكنة في مكانك وانسى أن لك لسانا يستطيع النطق ! . .
والآن ، هل في وسعك ان تفعل ذلك ؟ . . إننى على يقين من
أنك لن تفعل عني سرورا واستهتاعا بمشاهدة نهاية الشيطان
الآخرة ! . . إنه سوف يكون هلاكك ، إذا لم تسبقي إلى
إهلاكه ، وسوف يكون دماري . . الا لعنة الله على البوغد
الجبنى ! . . إنه يقرع الباب كأنها امبيع سيد هذه الدار ! . .
عدينى بأن تمسكى لسانك ، وسقرين انك قبل ان تدق
الساعة ، وقد بقيت ثلاث دقائق على الساعة الواحدة ، قد
غدوت امرأة حرة !

وأخرج من صدره ذلك السلاح الذي وصفته لك في
خطابى ، وأراد ان يطفى الشمعة لولا اننى بادرت إلى اختطافها
منه ، وامسكت بذراعها قائلة :

— لن امسك لسانى . . كما انك لا يجب ان تمسه . . دع
الباب موصدا ، واركن إلى الهدوء قليلا . .

فصاح الإنسان اليأس قائلا :

— كلا . . لقد انتصيت إلى قرار حاسم ، واقسم بالله ان
انفذه . . سوف أسدى إليك جميلا برغم انك ، وأرد إلى
هيرتون حقوقه . . ولا أراك في حاجة لأن تفعلى رأسك
بصابتى ! . . لقد ذهبت كثيرين ، ولم يبق إلا الوجود من

يحزن على ، أو يلحقه العار بسببي لو اننى قطعت عنقى هذه اللحظة .. وقد حان الوقت لوضع نهاية لهذا الامر ..

ولو اننى ناضلقه وقتئذ مكاننى كنت اصارع دبا هائجا . ولو ناقشته مكاننى كنت اجادل مجنوناً غاقد الصواب .. فلم تعد أمامى من حيلة الجأ إليها سوى أن اعدو إلى إحدى النوافذ لاحذر ضحيته بما ينتظره من قضاء .. غصت في نبرات يخالجها الانتصار :

— خير لك أن تبحث عن ماوى لك في مكان آخر الليلة . فإن مستر إيرنشو يفكر في أن يطلق عليك النار إذا أصرت على محاولة الدخول ..

— بل خير لك أن تفتحى الباب ايتها الـ .. قال ذلك وهو يخاطبني بلطف رشيق لا أرى ما يدعو لتفريده ! .. ولكنى عدت أقول له :

— لن أزعج بنفسى في هذا الأمر ، فما عليك إلا أن تدخل وتصاب بالرصاص إذا كان ذلك يسرك ! .. أما أنا فقد أدبت واجبى ..

وما انتهيت من كلامى حتى أغلقت النافذة ثابتة ، وعدت إلى مكائى بجوار الموقد .. وإذا كانت ذخيرتى من التفاق قد فرغت ، فلم يعد في وسعنى أن أظهار بالقلق نحو الخطر الذى يتهدده ! .. أما إيرنشو فقد راح يسبنى في حرارة ويؤكد اننى ما زلت أحب الوغد بعد ، ويطلق على صنوفنا من النعوت والصفات لما أظهرته من نفسية وضيفة ! .. أما أنا فكانت في

قرارة قلبى (ولم يؤذبنى ضميرى على ذلك قط) أرى كم تكون نعمة لهندلى ورحمة لو استطاع هيثكليف أن يضع نهاية لبؤسه ، وكم تكون نعمة لى وبركة لو استطاع هو أن يرسل هيثكليف إلى مثواه العادل ! .. وفيما كنت جالسة اهدده هذه الخواطر ، إذا بمصراع إحدى النوافذ الضيقة خلف مقعدى يهوى إلى الأرض فجأة بعد أن أهوى عليه هيثكليف بشربات عنيفة ، ثم بدا من خلال النافذة وجهه الاسود الهضيم .. ولم تكن القضبان الحديدية من السعة بحيث تسمح بمرور كفتيه ، فاقبست ابتهاجا لما أحسست به من أمن مزعوم .. وكان الثلج الأبيض يغلى شعره وثيابه ، بينما كانت انيابه الحسادة المفترسة تتالق في الظلام ، وقد جعله البرد والقضب يكشر عنها ..

وما لبث أن راح « يزوم » كما يقول جوزيف ، قائلا :
— ذهبنى ادخل يا ايزابيلا ، وإلا جعلتك تندهين طويلا ..
فأجبته :

— ليس في وسعنى أن أرتكب جريمة قتل .. فإن مستر هندلى يقف بترقباً وفي يده سكين ومسدس محشو بالرصاص ..

— افتحى لى باب المطبخ ..
— سوف يسبقك هندلى إليه .. ثم ما أتفه هذا الحب الذى تطوى عليه جوانحك فلا يجعلك تطيق رذاذاً من الطلوج ! .. لقد كنا نرقد في غرشنا هائنين ناعمين طالما كان قمر

الصيف مشرقا زاهيا ، ولكنك في اللحظة التي تعود فيها عصفة من عواصف الشتاء تسارع بالفرار والبحث عن ملجأ وماوى ! .. لو اننى كنت في مكانك يا هينكليف ، لدهست وركعت فوق قبرها حتى اموت أشسبه بكلب أمين ذى وفاء ! .. فان الدنيا لا تستحق العيش فيها الآن حقا ، اليس كذلك ؟ .. وقد أوحيت إلى ، بما لا يقبل الشك ، بأن كثيرين كانت وحدها كل ما في حياتك من بهجة وسعادة ، ولست استطيع أن أتصور كيف تفكر في أن تعيش بعد فقدانها !

وعندئذ هتف رفيقى وهو يندفع نحو فجوة النامدة :

— إنه هناك .. اليس كذلك ؟ ، إذا استطعت أن أخرج ذراعى فسوف أصيبه حتبا !

وأخشى يا ايلين أن تعيدنى شربة مناصلة الشر ، ولكنك لا تعرفين كل شيء ، فلا تحكمى على .. فأننى ما كنت لأشترك أو أحرص على أية محاولة للاعتداء على حياته ، مما يكن من أمر .. ولكن ما من شك في اننى كنت أتمنى موته ! .. ولذلك فقد خاب أملى إلى حد مخيف ، وانخلع قلبنى من الرعب بما سوف يكون لحديثى العنيف من عواقب مروعة ، عندما ألقى بنفسه على سلاح إيرنشو وانقرمه من قبضته ..

وانطلقت الرصاصة مدوية .. أما السكين فبقينا عندما ارتدت إلى مخبئها ، أطلقت على رسغ صاحبها .. وانقرعها هينكليف في قوة خارقة ، حتى مزقت اللحم وحى تجبرى فوقه ! ثم ألقى بها في جيبه وهى تقطر بالدماء .. وعندئذ

تناول حجرا ضخما وراح يحطم به الفاصل بين النافذتين ، ثم وثب إلى داخل الحجرة .. وكان غريمه قد وقع على الأرض فاقد الوعى ، من قرط الألم ، ومن غيض الدماء التى تدفقت من شريان كبير مقطوع .. فاخذ الوغد يركله ويطؤه بقدميه وبقالبه يراشه المرة تلو المرة ، وهو يمسك بى بيده الأخرى ليحول دون استجدادى بجوزيف .. وكان يبذل جهدا غيورا طاعة البشر في نكران الذات ودفع عواهل الإغراء ، حتى لا يحزن عليه نهائيا .. ولكنه إذ بدأ يلهث من التعب أخيرا ، كفت عن متابعة عمله الشيطانى ، وراح يجر الجسم المسجى حتى الأريكة ، ثم مزق كم ستره إيرنشو وأخذ يربط الجرح في خشونة وحشية وهو يبصق ويلعن في حمية لا تقبل عن التى كان يركله بها .. وإذ القيت نفسى قد تحررت من قبضته ، لم أضيع شيئا من الوقت في البحث عن الخادم الشيخ ، الذى ما كاد يستوعب في بطة وتبلد فحوى قصصى العاجلة ، حتى أسرع بهتط الدرج كل اثنتين معا ، وهو يفهم لاهثا :

— ماذا يجب عمله الآن ؟ .. ماذا يجب عمله الآن ؟ ..

تصاح به هينكليف في صوت كهزيم الرعد :

— هاك ما يجب عمله .. ان سيدك مجنون ، ولو ظل على هذه الحال شيئا آخر ، فسوف أبعث به إلى مستشفى الجنون العتية .. ثم كيف أجترأت ، بحق الشيطان على مساعد الابواب دونى ، أيها الكلب الأهم ؟ .. لا تقف هكذا فغيب ونهيب في مكانك .. تعال فأننى لن أقدم على تعريضه

.. اغسل هذه الأقدام ووظف الجرح .. ولكن حذار من شرر
شبعك ، فان أكثر من نصف هذه الدماء من الكحول !

غبت جوزيف وهو يرتفع ذراعيه « وعينيه ، إلى السماء
فزعاً ورعباً :

— وإذن فقد كنت تعمل على التمسك به .. إن عياني لم تقعا
على مثل هذا المنظر قط من قبل ! .. فليكن الله ..

وعندئذ دفعه هيثلف دفعة قوية التفت به على ركبتيه
وسط الدماء ، ثم طرح إليه بهشاشة .. وبدلاً من أن يأخذ
جوزيف في مسح الدماء ، ضم يديه معا ، وانطلق في صلاة
الزمت الفاظها السجية الضحك مني برغم إرادتي .. فقد
كنت في حالة عقلية تجعلني أذكر من الله شيء .. بل الواقع
أفنى كنت فاقدة الشعور متبلدة الحس كما يبدو بعض المجرمين
وهم عند اعتاب المشقة !

فقال الطاغية وقد نبهته ضحكى :

.. أنت .. لقد نسيتك .. أنت التي يجب أن تقوم بهذا
العمل .. اركعي على الأرض .. هل كنت تتألمين معه ضدى
أيتها الأمعى ؟ .. هيا .. هذا هو العمل الذي يليق بك ..

وراح يهزنى حتى اصططكت استناني في قوة ، ثم طوح بي إلى
جوار جوزيف .. وكان هذا الأخير ماضياً في دعواته وابتهالاته
حتى انصمى في ثبات ، وعندئذ نهض ناظراً أن يذهب على الفور
إلى « الجرانج » ، فقد كان مستر لينتون قاضياً ، ولو ماتت
له خمسون زوجة فلن يتأخر عن التفتيش في حجبنا الأمر ..



وكان غريمه قد وقع على الأرض فاقد الوعي ، من فرط الألم ،
ومن فحش الدماء التي تنفقت من شريان كعب مقطوع ..

الصامتين ، وأحس فى أعماقى براحة ضميرى الذى لا يثقله
وزر أو سوء .. فلما فرغت من طعامى ، تذرعت بالجرأة
لممارسة حريتى المعتادة فى الاقتراب من الموقد ، فدرت حول
معد أيرنشو ، وجئوت فى الركن إلى جانبه ..

ولم يلق هيثكليف نظرة واحدة نحوى ، أما أنا فقد رحت
أحدق النظر إليه وأنفرس فى أساريه « بقلب قوى غير هياب ،
وكانها قد تحولت إلى حجر منحوت .. كان جبينه ، الذى
حسبته ذات مرة معبرا عن الرجولة الحقبة ، والذى أحسبه الآن
كجبين الشيطان ، تظله سحابة كثيفة من الهم والأسى ..
وكانت عيناه الثعبانيان « قد أظفاً بريقهما السهد ، وربما البكاء
إذ كانت أعدابهما ومقتل رطبة ندية .. أما شفاته اللتان تجردنا
من بخريتهما الضارية ، فقد أطبقتا فى قوة وكانها ختم عليهما
حزن دفين مكتوم .. ولو أنه كان شسخصاً آخر ، لأخفيت
وجهى بين يدى أمام مثل هذا الحزن العظيم .. أما فى حالته
هو ، فقد وجدت فيها ما يرضينى ويثلج قلبى .. ومهما يكن
يبدو من القسوة والنذالة أن يسب المرء عدواً مهزوماً ، إلا أننى
ما كنت لأدع هذه الفرصة ثم دون أن أرميه بسهم من يدى
.. فساعة ضعفه هى اللحظة الوحيدة التى أذوق فيها لذة
مقابلة الإساءة بالإساءة ..

نقاطعتها قائلة :

— بشى ما فعلت يا أنسة ! .. ان المرء ليظن أنك ما فتحت
كتاباً مقدساً فى حياتك .. وإذا كان الله قد ابتلى إصداك ،

وكان من العناد والاصرار على تنفيذ عزمه بحيث رأى هيثكليف
من الأفق أن ينتزع من شفتى ملخصاً لما حدث .. كان يتف
فوق راسى ، لاحقاً بالشر والضغينة ، بينما كنت أنطق بشهادتى
فى نفور ، رداً على أسئلته المتتابعة .. وقد احتاج الأمر إلى
جهد عظيم لإقناع العجوز بأن هيثكليف لم يكن المعتشى .
خصوصاً وأن أجاباتي كانت تنتزع منى فى غنا .. ومهما يكن
من أمر ، فسرعان ما أقنعه مستر أيرنشو نفسه بأنه ما زال
على قيد الحياة ، فقد أسرع جوزيف باحضار جرعة من الشراب
كان لها أثرها فى إسعاف سيده ، فما لبث أن استرد الوعى
والحراك .. وإذا كان هيثكليف يدرك أن خصمه يجهل كل شيء
عن المعاملة التى لقيها منه بينما كان فاقده الرشد . فقد دعاه
بالسكير المخرف ، وقال إنه سوف يغضى عن مسلكه الأثيم . ثم
نصحه بأن يذهب إلى فراشه ! .. وكما كان سرورى إذ فارقنا
بعد أن ألقى بيده النصيحة القيمة .. فاستلقى هندلى على
الأرض بجوار الموقد ، أما أنا فانصرفت إلى حجرتى ، متعجبة
من أننى أفعلت منه بهذه السهولة ..

وعندما نزلت صباح اليوم ، قبل الظهر بنصف ساعة ، كان
مستر هندلى جالساً بجانب النار ، شاحب الوجه كالأموات .
بينما وقف شيطانته الزنيم مستنداً إلى المدفأة ، وهو لا يقل عنه
شحوباً واصفراراً .. ولم يكن يبدو على أحدهما ميل إلى
تناول الطعام ، حتى إذا ما طال انتظارى ، وبرد الطعام وغتر
فوق المائدة ، بدأت الأكل وحدى .. وكنت أستمع نوعاً من
الرضى والسمو ، كلما ألقيت بين الحين والآخر نظرة على ريفتى

فإن ذلك خليق بأن يكفيك .. فمن النذالة والكفران معما ان
تضيفى عذابك إلى عذابه جل شأنه !

فاستطردت تقول :

— اننى اوافئك على ما تقولين يا ايلين بصفة عامة .. ولكن
اى عذاب ذلك الذى يصيب هينكليف ويريضينى ، إذا لم تكن
لى يد فيه ؟ .. اننى كنت أرجو أن تقل آلامه ، لو اننى كنت
التي سببتها ، وكان هو يعرف اننى سببها .. آه ! .. اننى
مدينة له بالكثير ! .. واننى لخليقة بأن آمل أن اصبح منه
بشرط واحد فقط .. ذلك أن أجزيه عينا بعين وسنا بمن
وكل عصرة من الآلام عصرة مثلها ، حتى اهبط به إلى مستواي !
.. وإذا كان هو البادى بالعدوان والإساءة ، فدعبه يكن
البادى باستجداء الصبح ، وعندئذ .. عندئذ فقط يا ايلين
يمكن أن اظهر لك شيئا من الكرم .. ولكن من المحال قطعا
أن استطيع الانتقام لنفسى ، ولذلك فاننى لن استطيع الصبح
عنه ..

ثم اردفت تقابع الحديث :

طلب هندلى بعض الماء ، فناولته الكوب ، ثم سألته عن
حالته ، فقال :

— لست مريضا بالقدر الذى كنت اوده .. وبغض النظر
عن آلام ذراعى ، فإن كل قيراط من بدنى يخزنى ويؤلمنى كأنها
كنت احارب غرقة من العفاريث ..

فكانت ملاحظتى التالية أن قلت :

— نعم .. ولا عجب ! .. لقد اعتادت كاثرين أن تزهو بأنها
تقف بينك وبين اى اذى جسمانى .. وكانت تعنى أن احد
الناس لن يجرؤ على ايدائك ، حتى لا يسيء إليهما .. والآن
تأكدت أن الناس لا يقومون حقيقة من ثبورهم ، وإلا كان من
الممكن أن تشهد كاثرين ليلة الامس منظرًا كريها منفرا ..
الست تحس بالكدمات والقطوع في صدرك وكفتيك ؟ ..

— لست أدري تماما .. ولكن ماذا تعنين ؟ .. هل اجترأ
على ضربى بينما كنت طريقا على الأرض ؟ ..

فهمست قائلة :

— كان يركلك ويدوسك بقدميه ويضرب رأسك بالبلاط ،
وكان اللعاب يسيل من فيه شوقا إلى تمزيقك بأنابه .. لأنه
ليس إلا نصف إنسان ، وأما باقيه فشيطان رجيم ..

فنتطلع مستر ايرنشو بانتظاره إلى أعلى محملا ، مثلى ، في
وجه عدونا المشترك الذى كان مستغرقا في همومه وآلامه
بحيث كأن يبدو غافلا عن كل ما يدور حوله .. وكان كلما طال
وتوقفه ، كلما ازداد انطباع افكاره السوداء على أساريه
وضوحا ..

فتأود هندلى ، وتلوى في متعده وهو ييم بالنفوس ، وكأنه
لا يستطيع صبرا ، وقال :

— آه ! .. لو أن الله يهينى من القوة القسور الذى يكفى لأن

أخفقه بيدي وأنا في النزوع الأخير ، لدخلت الجحيم راضيا
مسرورا !

ولكنه غاص في مقعده ثائية ، وقد تهلله اليأس ، بعد ما
تبين قصوره عن النضال .. بينما كنت أقول بصوت مرتفع :

— لا .. لا .. غيكنى أنه قتل واحدا منكم .. ان كل
إنسان في « الجرائع » يعرف ان شتيقتك كانت خليفة بالبقاء
على قيد الحياة الآن ، لولا مستر هيكليف .. وهكذا فان
الأفضل للمرء ان يكون محل بغضه وكرهه من ان يكون
موضع حبه وهيامه .. واننى كلما ذكرت كيف كانت السعادة
تطلق فوقنا جميعا ، وكيف كانت كائرين سعيدة هائلة قبل
مقدمه ، ارانى الآن ذلك اليوم من كل قلبى ..

وأغلب الظن ان هيكليف أدرك ما في هذا القول من الصدق،
أكثر من إدراكه ما كان يعتل في قلب الشخص الذي نطق به
.. فقد ثار انتباهه لكلماتي ، كما رأيت ، إذ أضفت عيناه
تطيران الدبوع بين أهدابها ، وراح يلتقط أنفاسه في أنات
مختلفة .. غرحت أخلق النظر إليه مواجهة ، ثم ضحكت
ساخرة .. فانطلقت نحوى من نافذتي جهنم الغائمتين نظرات
نارية لم تدم أكثر من لحظة .. ولكن الشيطان الذي كان
يطل منهما عادة كان كامدا ، غريقا ، بحيث لم يخالجنى الخوف
لحظة من المجازفة بضحكة ساخرة أخرى ..

فقال الشاكل المحزون :

— قومي ، واغربي عن ناظري ..

وقد غيبت كلماته من قبيل الحسدس والتخبين ، إذ كان
صوته مخفقا لا يكاد يبين منه لفظ أو حرف .. فأجبتة :

— أرجو المعذرة ! .. ولكنى كنت أحب كائرين أيضا ..
وما هو ذا شقيقتي يحتاج إلى العناية التي سوف أقدمها له ،
إكراما لذكراها .. أما وقد ماتت الآن ، فأتى أراها في هندلي
.. ان عينيه تشبهان عينيها تماما ، لولا محاولتك في جعلهما
بارزتين مجلقتين بالسواد والعبرة ! .. كما أنها ..

فصاح قائلا :

— انهضى أيتها النعسة الحشاء ، قبل ان أسحقك حتى
أقضى عليك ..

ثم هم بحركة جعلتني أتحرك في مكاني بدوري ، ولكنى
أردفت ، قائلة : « وقد أعددت نفسى للفرار :

— ولكن لو أن كائرين المسكينة كانت قد وثقت بك ورضيت
ان تتخذ لنفسها ذلك اللقب المضحك الحقر المزرى ، لقب
« مسز هيكليف » ، لفدت وشيكا في مثل هذه الصورة
الاليمية .. أنها — هي — ما كانت لتحتفل بمسالك الفلنيل في
سكون وهدوء ، ولوجد بغضا واشمئزازها متلفسا ..

وكان ظهر المقعد المرتفع ، وشخص ابرنشو ، يحولان بيته
وبينى .. وهكذا فانه بدلا من أن يحاول الانقضاض على ،
اختطف سكبنا من فوق المائدة ، وقذف بها رأسي ، فاصابتني
تحت أذني ، واوقفت العبارة التي كنت على وشك ان أنطق
بها .. ولكنى انتزعتها ، ووثبت نحو الباب ، ثم التفت إليه

تراسل منتظم بعد ان ازدادت الأمور استقرارا .. واعتقد انها اتخذت مقرها الجديد في الجنوب ، بالقرب من لندن .. وهناك وضعت غلابا ، بعد بضعة شهور من فرارها ، اسمته « لينتون » ، وقالت إنه كان منذ مولده عليلا هزيلا شكسا .. وقابلنى مستر هيكليف في القرية ذات يوم ، وسألنى عن المكان الذى تقيم فيه ، فرغضت أن أخبره به .. فقال ان الأمر ليس بذى أهمية لديه ، ولكن عليها أن تحذر الحضور للإقامة مع أخيها .. وليقم بالاتفاق عليها إذا شاء ، ولكن على ألا تسأله أو تقيم معه .. ومع أننى ابيت الأدلاء إليه بآية معلومات ، فقد اكتشف ، عن طريق بعض الخدم الآخرين ، المكان الذى تقيم فيه : ومولد الطفل أيضا .. ولكنه مع ذلك لم يقدم على إزعاجها أو ملاحقتها .. وهو إجماع أحسبها تحمده بواعثه وهى نفوره منها وكراهيته لها .. وكان غلابا ما يسألنى عن الغلام ، كلما رأتى .. ولما سمع اسمه ابتسم فى عبوس وقال معقبا :

- انهم يريدون ان اكرمه أيضا .. أليس كذلك ؟ ..
- بل لا أحسبهم يريدون أن تعرف عنه شيئا النسة ..
- ولكن سوف آخذه ، عندما أريد .. وليكونوا من ذلك على يقين ..

ومن حسن الحظ أن امه قضت نحبها قبل أن يحين ذلك الوقت .. وكان ذلك بعد وفاة كاثرين بثلاثة عشر عاما ، عندما كان لينتون الصغير فى الثانية عشرة من عمره ، أو أكثر قليلا ..



بعبارة أخرى أحسبها كانت أشد عمقا فى نفسه من تذييفته التى رمأتى بها ! .. وكانت آخر لمحة رأيها منه ، أنه اندفع نحوى فى وحشية « ولكن حال بيته وبين ملاحقتى أن مضيقه قام فاحتضنه ثم سقط الاثنان متهاككين بجوار المدفأة .. وفى أثناء فرارى من المطبخ ، طلبت إلى جوزيف أن يدرك سيده ، وتعمرت فى هيرتون الذى كان ينلى جروا رضيع من فوق ظهر المقعد فى مدخل المطبخ .. وفى سعادة الروح التى أفلتت من يوم الحساب « انطلقت أغفر وأتب وأطير طيرانا فى الطريق المنحدرة ، ثم ما لبثت أن تركت منحباتها ومضيت أخترق البرارى راسا ، فأتدحرج فوق الشيطان . وأخوض خلال المستنقعات ، واستحث خطاى نحو « الجرانج » الذى اتخذت منه مارا يهدينى سواء السبيل .. وأتفى لأفضل ألف مرة أن يحكم على بالمسكنى الأبدية فى تلك المناطق الجهنمية ، من أن أقضى ولو ليلة واحدة تحت سقف « مرتفعات ويذرنج » ثانية ..

وكنت أيزابيللا من الكلام ، وأخذت رشفة من الشاى ، ثم نهضت وطلبت إلى أن أعاونها فى ارتداء ثيبتها والتدثر بشال كبير أحضرته لها ، وقد أعارت توسلاتى ليا بالبقاء ساعة أخرى أذنا صماء ، ثم ارتقت مقعدا فقبلت صورة كاثرين وصورة ادجار ، ومنحتنى قبلة أخرى ، وأسرعت إلى العربة وفى صحبتها كلبها « غانى » الذى كان ينبج فى فرح شديد لاستمادة سيده .. وانطلقت بها العربة ، فلم تضع قدميها فى تلك الأنحاء بعد ذلك قط .. ولكن نشأ بيننا وبين سيدي

لم تتع لى أية فرصة للتحدث إلى سيدى غداة زيارة
إيزابيلا غير المتوقعة .. فقد كان عزوقا عن الحديث لا تسمح
له حالته بهناقشة أى موضوع .. غلبا استطعت أن أحمله
على الإصغاء رأيت أن غراق شقيقته لزوجها قد سره كثير .
إذ كان يمقت هيثكليف مقنا شديدا بلغ من الغمارة ما لم
أكن أحسب أن اعتدال طبيعته يسمح به .. كان نشوره
واشمئزازه من العمق والحساسية بحيث كان يتجنب
الذهاب إلى أى مكان يحتفل أن يراه قيسه أو يسمع عنه
.. ولهذا السبب ، فضلا عن حزنه العميق - تحول ادجار
إلى ناسك يعزل الناس والعالم .. فغظى عن وظيفته
القضائية ، وامتنع حتى عن الذهاب إلى الكنيسة ، وتجنب
زيارة القرية في جميع المناسبات . وراح يمضي حياته
في عزلة تامة داخل حدود بستانه وضباعه ، لا يتجاوزها إلا
في جولة يقوم بها وحيدا بين البرارى ، أو زيارة يؤديها لغير
زوجته ، معظمها في المساء أو الصباح الباكر قبل أن يخرج غيرة
من المارة من ديارهم ..

ولكنه كان من الطيبة والنفدين بحيث لم يقم على الاستسلام
للشقاء حلويلا .. لم يكن - كما فعل الآخر - يدعو روح
كاثرين إلى ملازمته وارتياحه ! وساهم الزمن في جعله بذعن
للقضاء ، وكساه طباعا من الكتابة أحلى من المرح المألوف ..
وكان يستعيد ذكراها في حب وحنان عميقين ، وفي الدعاء
نها بالنعيم بعالم أفضل ، لم يكن يشك البتة في ذهابها إليه !
.. ولكن كان له عزاءه وعواطفه الدنيوية أيضا .. فقد مكث

أيها حسبته خلالها لا يهتم على الإطلاق بالنبقة الصغيرة التى
خلقتها الراحلة .. ولكن جموده ما لبث أن ذاب بأسرع مما
نذوب الثلوج في شهر أبريل ، حتى أنه قبل أن تستطيع
الصغيرة أن تنطق بكلمة أو تحبو خطوة ، كانت تحتل في قلبه
عرشا مكيئا .. وسماها كاثرين ، ولكنه لم يكن يدعوها بهذا
الاسم كاملا قط ، كما لم يكن يدعو كاثرين الأولى باسمها
المصغر قط .. ربما لأن هيثكليف اعتاد أن يدعوها به ..
كانت الصغيرة تسمى « كائى » دائما .. وكان له في ذلك
ما يميزها عن أميا . وما يربطها بها في الوقت نفسه .. وكان
تمنعه بها ينبثق من صلتها بأبها أكثر مما ينبعث من أبوته لها ..

وقد اعتدت أن أقرن بينه وبين هندلى إيرنشو ، واكدح
فكرى . في حيرة ودهشة ، للوصول إلى تفسير يقتضى لما بدا
من تناقض مسلكهما إلى هذا الحد ، في ظروف متماثلة
تماما .. كان كلاهما زوجا شديد الولع بزوجته ، عزيز
الحافظة نحو طفله . ومن ثم لم يكن بوسعى أن أفهم كيف
لا يسلك كلاهما طريقا واحدة ، سواء أكانت نحو الخير أم نحو
الشّر .. ولكن هندلى - كما قلت لنفسي - وقد كان اقواهما
مراسا واكبرهما عقلا ، قد أثبت أنه أسوأ الاثنين واضعفهما .
فعمد ما ارتطبت سفينته ، هجر الربان مركزه ، فاندفع
البحارة نحو التمرد والفوضى ، بدلا من أن يحاولوا إنقاذ
سفينتهم المنكودة ، ولم يدعوا لها ذرة من الأمل في النجاة ..
وعلى العكس من ذلك ، أظهر لينتون تلك الشجاعة الحقّة التى
تميز بها النفس المؤمنة المخلصة .. كان يتردد على قلبه ،

لوجه الله الراحة والسكينة .. غدا أحدهما مغفلا للأمل ..
والآخر قريسة لليأس .. اختار كل منهما نصيبه ، فقدر
عليه أن يحتله بحق .. ولكذك لا تريد أن تسمع منى هذا
النقد الأخلاقى يا مستر لو كووود .. وتود أن تحكم بنفسك -
مظلمة استطعت أن أفعل - على كل هذه الأشياء .. أو هذا
على الأقل ما سوف تظن أنك فاعله .. والأمر بعد ذلك سواء ..

وجاءت نهاية ايرنشو مثلما كان يمكن للمرء أن يتوقعها ..
وقد أعقبت وفاة شقيقته سريعا لا يكاد يفصل بينهما أكثر من
سنة شهوور .. ولم تكن فى « الجراجج » تعرف أقل شىء عن
حالته قبل موته ، فكل ما استطعت أن أهرمه إنما سمعت به
عند ما ذهبت للمساعدة فى معدات الجنازة .. فقد حضر مستر
كينيث ليبلغ النبأ إلى سيدى ، فى صباح أحد الأيام . وكان
الوقت مبكرا ، فلم يشأ أن يصدمنى بذكر الأنباء السيئة
مباشرة ، وإنما قال لى وهو يدخل راكبا جواده فى الغناء :
- حسنا يا نللى ! .. إنه الآن دورك ودورى فى ارتداء ثياب
الحداد .. فمن تظنينه قد غاب عنا اليوم ؟ ..

فمسألته فى لهفة شديدة : من ؟ ..

فقال وهو يترجل ويملق عنان الجسواد فى الخفاف بجوار
الباب :

- لماذا ؟ .. عليك أن تصدى بنفسك .. ثم عليك أن
ترفعى طرف مرولك ، فانى واثق من أنك ستحتاجين إليها ..
فصحت قائلة :

- إنه - يقينا - ليس مستر هينكليف ؟ ..

فقال الطبيب :

- ماذا ؟ .. وهل كنت تجددين دموعا تذرفينها عليه ؟ ..
كلا .. فببكتيف شاب متين الجسم قوى البنية .. وهو يبدو
مشرقاً ناضرا اليوم ، فقد راينه للتو .. وقد بدأ جسمه يمتلىء
باللحم سريعا منذ أن ضاع نصفه الحلو ..

فعدت أهتف فى صبر نافذ :

- من إذن يا مستر كينيث ؟ ..

- هنلى ايرنشو .. صديقك القديم هنلى ، وصاحبى
التمس المنكود ، ولو أنه كان شديد الضراوة مسمى فى هذه
الآونة الطويلة الأخيرة .. أه ! .. لقد ظلت اننا سوف نفجر
الماء من العميون ! .. ولكن لا .. دعى عنك البكاء .. فقد مات
مخلصا لخلفه ومبادنه ! .. مات ثملا كاحد اللوردات ! .. أه !
.. يا للفنى المسكين ! .. اتنى حزين من أجله كذلك .. فالمرء
لا يملك إلا أن يحزن لفقد رفيق قديم ، ولو أنه كان ينطوى
على أسوأ الصفات التى لا يتخيلها إنسان ، وفعل مسمى الكثير
من أنواع الخداع الدنيئة ! .. ويبدو انه لم يتجاوز السابعة
والعشرين من عمره ، أى فى مثل سنك تماما .. فمندا الذى
كان يظن أنكما ولدتما فى سنة واحدة ؟ ..

واعترف أن تلك اللطمة كانت أشد وقعاً على نفسى من
صعمة وفاة مسز لينتون .. وبدأت ذكريات أبائنا القديمة
تطوف بقلبى ، فجلست فى الشرفة ، ومضيت أبكى بحسرة
كأنها أبكى قريبا تربطنى به صلة الدم ، راغبة إلى مستر كينيث
أن يدعوا خالداً أخرى لتعوده إلى السيد .. ولم يكن فى

وسمى أن أمتع نفسي من إيمان الفكر في هذا السؤال : « أتراه
لقى معاملة كريهة لائقة ؟ » فأننى معها فعلت ، فإن هذه
الفكرة سوف تظل تلاحتنى وتغص عيشى .. وقد كانت من
الإلحاح المخفى بحيث عزمت على أن التمس الإذن لى بالذهاب
إلى « مرتفعات ويلدنج » ، لاساهم فى أداء الواجب الأخير
نحو الفتيق .. وكان مستر لينتون ، فى بادئ الأمر ، يأبى كل
الإبقاء أن يسمح لى بذلك ، ولكنى رحت أدافع فى حرارة
وذلاقة لسان عن الحال التى يرقد فيها هندلى مجردا عن
الأصدقاء والأحبة ، وقلت أن لمسىدى القديم وأخى فى
الزراعة ، من الحقوق فى خدمتى ما لا يقل عن حقوق
مستر لينتون نفسه .. وفضلا عن ذلك فقد ذكرته بأن
هيرتون الطفل هو ابن شقيق زوجته ، وأن من واجبه ، وهو
أقرب الناس إليه الآن ، أن يكون حاميه وحارسه .. وقلت
إنه ينبغي له ، بل يجب عليه ، أن يتحرى عن الحالة التى
تركت بها أملاك شقيق زوجته ، وأن ينظر فى رعاية مصالحه
.. ولكنه كان وقتئذ فى حالة لا تسمح له ببساطة مثل هذه
الاشئون ، فأمرنى بأن أتكم فى ذلك مع محاميه ، ثم سمح لى
بالذهاب .. وكان محاميه هو محامى مستر ابرنشو فى الوقت
نفسه ، فذهبت إلى زيارته فى القرية ، وسألته أن يصحبنى
.. ولكنه هز رأسه سلبا ، ونصح لى بأن ندع مستر هينكليف
وشأنه .. مؤكدا أنه لو عرفت الحقيقة ، فسيبتين أن هيرتون
قد ترك أدنى إلى المعدمين والشحاذين .. ثم أردف قائلا :

— لقد مات أبوه غارقا فى الدين ، بعد أن رهن كل ما يملكه
.. والأمل الوحيد أمام الوريث الطبيعى الآن ، هو أن نفتح له

الفرصة لكى يخلق فى قلب الدائن شيئا من الاهتمام به بحيث
يميل إلى معاملته بنوع من الرفق والتسامح .

علما بلفت « مرتفعات ويلدنج » ، أوضحت أننى جئت
كى أشارك فى عمل الترتيبات اللائقة بالفتيد .. وقد أعرب
جوزيف عن ارتياحه لحضورى ، وكان يبدو فى حزن عميق
.. أبا هينكليف فقد قال إنه لا يرى ثمة ما يحتاج لوجودى ،
ولكن فى وسعى أن أبقى ، وأن أمر بما أراه نحو معدات
الجنازة ، إذا رغبت فى ذلك .. ثم عقب قائلا :

— إن الأصوب أن يدفن جثمان هذا المعنود فى مفترق
الطرق دون احتفال من أى نوع .. فقد حدث أن تركته عشر
دقائق بعد ظهر الامس ، فما كان منه فى هذه الفترة الوجيزة
إلا أن أوصد أبواب المنزل فى وجهى ، ثم أمضى الليل بطوله
بشرب الخمر حتى قتل نفسه عن عمد .. وحططنا الباب فى
الصباح ، إذ سمعناه يرسل نحيبا عاليا كالحصان فوجدناه
ملقى فوق الأريكة ، غائبا عن الصواب ، لا يفيق ولو سلخنا
جلده أو شققنا رأسه ! .. وأرسلت فى طلب كينيث ، فلم
يحضر إلا وقد تحول هذا البهيم إلى رمة ! .. كان ميتا ،
باردا ، متيسا .. وهكذا ترين أنه كان من العبث أن نحدث
زيدا من الضجة بسببه ..

وأيد الخادم الشيخ هذه الرواية ، ولكنه غمغم يقول :

— كنت أفضل أن يذهب فى طلب الطبيب بنفسه ، فأننى
كنت خليقا بأن أعنى بالسيد خيرا منه .. ثم أنه لم يكن قد
مات عند ذهابى .. لا شيء من ذلك

واصررت على ان تشيع جنازته بما يليق به من احترام ، فقال مستر هيثكليف إنه يدع لى التصرف فى هذا الأمر كما أشاء أيضا ، ولكنه يود أن يذكرنى بان المال الذى سينفق على الجنازة إنما سيخرج من جيبه هو ! .. وكان يبدو جامدا ، فى غير مبالاة ، لا ينم مظهره عن حزن أو غرح .. وإن دل على شيء البتة ، فإنما يدل على رضى صارم . كما يرضى المرء عندما ينتهى بنجاح من مهمة شاقة .. بل لقد لاحظت مرة فى الواقع شيئا يشبه الإبتهاج فى مظهره . وكان ذلك على وجه التحديد عندما حمل النعش إلى خارج المنزل .. ومع ذلك فقد كان من النفاق بحيث ارتدى ثياب الحداد عند تشييع الجنازة .. وقبل أن يغادر المنزل مع هيرتون ، حمل الفلام المنكود ووضع فوق إحدى الموائد ، ثم غمغم بقول له فى تلفظ غريب : « وآل يا صغيرى العزيز ، لقد أصبحت لى وحدى ، وسوف نرى إن كانت الشجرة لن تشب معوجة كالشجرة الأخرى ، ما دامت الريح التى تهب عليهما وتثنيهما واحدة ! » .. وسر الطفل البريء لهذا الحديث الذى لم يفقه منه شيئا ، وراح يعبث بسوالف هيثكليف ويربت على خده .. ولكنى تكهنت بالمعنى الذى يرمى إليه ، فقلت فى مراة :

— إن هذا الصبى يجب أن يعود معى إلى « ثرشكروس جرانج » يا سيدى ، فهو آخر شيء فى العالم يمكن أن يصبح لك !

فسألنى فى اهتمام : وهل قال لينتون ذلك ؟

— بلا شك .. لقد أمرنى أن أعود به معى ..

فقال الوغد :

— حسنا .. إننا لن نناقش هذا الأمر الآن .. ولكن بى

ميلا إلى أن أرى غلاما صغيرا ، فبلغنى سيدك أنه إذا حاول أخذ هذا الصبى ، فلا بد لى من أن أحل ابنى محله .. ولست أتعهد بترك هيرتون يذهب دون أن أنازع حق سيدك فى أخذه . اما الآخر فأنى واثق من إحضاره حتما .. فلا تنسى أن تبلغه ذلك ..

وكان هذا التلميح كافيا لغل يدي .. فلما عدت أخبرت سيدى بهذا قال : ولما كان ادجار لينتون قليل الاكتراث للأمر منذ البداية ، فإنه لم يتكلم عن التدخل فى الأمر بعد ذلك قط .. ولست أعتقد أنه كان قادرا على عمل شيء ، حتى ولو كان راعيا فى ذلك ..

وهكذا أصبح الضيف سيد « مرتفعات ويدرنج » الآن ، حيث استولى عليها بيد من حديد ، واثبت للمحلمى — الذى أثبت ذلك لمستر لينتون بدوره — أن إيرنشو قد رهن كل شبر من الأراضى التى كان يملكها ليحصل على المال الذى يشبع به جنونه بالمقامرة .. وكان هيثكليف نفسه هو المرتين ..

وعلى هذا النحو أصبح هيرتون — الذى كان ينبغي أن يكون الآن السيد الأول فى المنطقة — خالى الوفاض لا يملك شيئا . ويعتمد اعتمادا كليا على عدو أبيه اللدود ، ويعيش فى منزل أسرته كأحد الخدم — وإن كان محروما من ميزة الأجر الذى يتقاضاه الخدم ! — وهو عاجز عن استعادة حقوقه ، لأنه محروم من الأصدقاء والأنصار ، ولأنه يجول كيف كان ضحية القدر والخيانة ..

الفصل الثامن عشر

وتابعت مسز دين قصتها غفالت :

كانت الأعوام الاثنا عشر التى تلت تلك الفترة المشؤومة .
أسعد أيام حياتى ، فكان أعظم ما لقيته غيبا من متاعب ناشئا
من تلك الأمراض الطفيفة التى كانت تنذاب أحيانا مسيدتنا
الصغيرة ، مثلما تصيب جميع الأطفال يستوى فى ذلك الغنى
منهم والفقر . . وفيما عدا ذلك فإنها بعد أن اجتازت الشهور
الستة الأولى : نشأت كالشجرة الباسقة . واستطاعت أن
تمشى وأن تتكلم على طريقتهما الخاصة . قبل أن يزهر العشب
مرة أخرى حول قبر مسز لينتون ، أى قبل أن يمر عام على
وفاتها . . كانت أكثر « الأشياء » استمالة للقلب وأقدر من
استطلاع ، فى يوم من الأيام ، أن يجلب شعاعا من الشمس إلى
المنزل الموحش !

كان محياها آية من آيات الجمال : غدت ورثت عيون آل
ايرنشو السوداء الساحرة ، وورثت من آل لينتون بشرتهم
الناصعة البياض ، وملامحهم الحقيقية ، وشعرهم الأكثر المجعد
.. وكانت روحها عالية ، فى غير خشونة . . وتميزت بقلب
شديد الحساسية والحيوية إلى حد الإنراط فى عواطفه . .
وكنيت كلها رأيت فيها ذلك الاستعداد للتعق الشديد بما تتواءم .
أذكر أمها . . ومع ذلك فلم تكن تشبهها . لأنها كانت قادرة
على أن تكون وديعة رقيقة كالحمامة ، كما كان لها صوت عذب

جميل ، ومحيا ترسم فيه علامات التفكير والانشغال . . لم يكن
غضبها قائرا جموحا ، ولم يكن حبها شائرا عنيفا ، وإنما كان
عميقا حنوناً . . ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بأنه كانت لها
أخطاء تشين مزايها . . من ذلك ميلها إلى الشقاوة ! . . بل
وكانت لها إرادة عنيدة كذلك التى يكتسبها الأطفال المذللون
سواء أكانوا مسلمين بطبعهم أم مشاكسين . . فلو صادف أن
ضاظها أحد الخدم فإنها لا تزيد على القول دائما : « سوف أخبر
بابا ! » . . أما إذا لامها والدها ، ولو بنظرة واحدة ، فإنك
تخاله أصابها بها يحطم القلوب ! . . ولست اعتقد أنه ضاظها
يوما من الأيام بكلمة خشنة أو عبارة قاسية . .

وقد أخذ على عاتقه أمر تعليمها وتثقيفها بنفسه ، وجعل
من ذلك مسلا له . . ومن حسن الحظ أن سرعة قريحتها
وميلها إلى العلم ، فى شغف وفضول ، قد جعلها منها نليذة
مجددة ناجحة . . وكانت تدرس فى سرعة ونهم ، وتلتهم
الدروس التيما أتلج قلب والدها وجزى تعبها فى تعليمها
خير الجزاء . .

ولم تكن حتى الثالثة عشرة من عمرها قد خرجت إلى
با وراء حدود البستان وحدها . . كان مستر لينتون ربما
صحبها إلى خارج البستان ميلا أو ميلين ، فى مرات نادرة . .
ولكنه لم يكن يأمن أن يعيد بها إلى أحد سواه . . كان اسم
القرية « جيمرتون » لفظا لا قيمة له ولا معنى فى أذنيها . .
وكانت الكنيسة هى المبنى الوحيد الذى اجتازت عتبة ، فيها
عدا منزلها . . أما « مرتفعات ويدرنج » أو « مستر هيدنليف »

فلم يكن لها وجود بالنسبة إليها .. كانت تعيش في عزلة تامة ، وكانت فيها يبدو قناعة بذلك راضية تماما .. وأقول « فيها يبدو » لأنها كانت أحيانا كلها مرحة بانظارها .. من نافذة حجرة العايبا ، في المناظر البعيدة تقول في تردد :

— كم ينبغي أن ينتضى من الوقت يا ايلين قبل أن أستطيع السير إلى قمم هذه التلال ؟ .. شدا ما أعجبا ما الذى يقع في الناحية الأخرى منها .. هل هو البحر ؟ .

فكنت أقول :

— كلا يا مس كائى .. بل تلال أخرى شبيهة بهذه تماما ..
وبالثنى مرة :

— ترى كيف يكون منظر هذه الصخور الذهبية إذا وقعت تحتها ؟ .

وكان السطح الشديد الانحدار لصخرة « بنسون كراجز » يلتفت نظرها بصغة خاصة ، ولا سيما عندما تتألق غوقه أشعة الشمس الغاربة ، بينما تلف الظلال سائر قمم التلال والأراضي المجاورة لها .. فقلت لها إنها مجرد كتل من الحجر والصخور الصلدة التى لا تحوى شيئا من التربة يصلح لإنبات شجرة واحدة ..

فتابعت أسئلتها في إلحاح :

— ولماذا تظل مضيئة وقتا طويلا بينما يخيم الظلام هنا ؟ .

— لأنها مرتفعة ارتفاعا عظيما عن مكاننا هذا .. كما أنه ليس في استطاعتك أن تتسلقها ، فهى شديدة الارتفاع

شديدة الانحدار ، والظلوج تعلوها في الشتاء قبل أن تصل إلينا .. بل لقد وجدت الظلوج مرة ، في أواسط الصيف ، تحت ذلك التجويف الأسود الذى تريته في الجانب الشمالى الشرقى !

عندئذ صاحبت في جذل :

— آه ! .. هل ذهبت إلى هناك إذن ؟ .. سوف أستطيع الذهاب بدورى إذن عندما أبلغ مبلغ النساء ! .. وهل ذهب أبى إلى هناك يا ايلين ؟ ..

فسارعت إلى الإجابة قائلة :

— سوف يخبرك أبوك يا أنستى ، انها لا تستحق عناء التريزة .. إن البرارى التى تتجولين معه فيها ، أعظم منها جبالا وروعة ، كما أن « بستان ثشكروس » هو أجمل مكان في العالم ..

نعمهت كأنها تحدث نفسها :

— ولكنى أعرف البستان ولا أعرف هذه التلال ! .. ولسوف يبيحنى أن أقف فوق تلك القمة العالية وأجبل أنظاري فيها بحيلة بى ! .. سوف يأخذنى مهربى الصغير « مينى » إلى عناك يوما من الأيام !

وفكرت إحدى الوصفيات أمامها مرة اسم « كهف الحوريات » فأدار ذكره رأسها بالرغبة في تنفيذ هذا المشروع ، وكانت لا تفت تذكر صغو والدها بالحديث عنه ، فكان يعدها بأن تقوم بهذه الرحلة عندما تتقدم في العمر .. ولكن سر كاثرين

كانت تقبس عمرها بالشهور ، فكان السؤال الذي لا يترشح شفتيها : « والآن ، هل كبرت بما يكفي لذهابي إلى بنثون كراجز ؟ .. » ولكن الطريق إلى هناك كان يدور بلاصفا « لمرتفعات ويدرتج » ، ولم يكن ادجار يميل إلى المرور به ، وهكذا كانت تتلقى دائما هذه الإجابة : « كلا يا حبيبتي .. » ثم يحن الوقت بعد ا .

قلت ان مسز هيكليف عاشت أكثر من اثني عشر عاما بعد ان هجرت زوجها ، وأضيف ان افراد اسرتها كانوا جميعا ضامان البنية ، فكانت تنقصها ، كما تنقص ادجار ، تلك الصحة اللبنة التي تلقاها عادة في اهل هذه المنطقة .. وثبتت أدري عن يقين ماذا كان مرضها الأخير ، ولكنني أحسب أنها وأخاها قد ماتا بهرض واحد ، هو نوع من الحمى بطيئة الظهور بدائها ، ولكنها غير قابلة للشفاء ، وتلتهم الحياة سريعا في النهاية .. وقد كتبت إلى أخيها لتخبره بقرب نياتها بعد مرض الزمها الفرائش أربعة شهور متوالية ، ورجته أن يذهب إليها : إذا استطاع ، لأن لديها الكثير من الأمور التي تريد تسويتها . ولأنها تريد ان تودعه الوداع الأخير ، وتعيد إليه بلينتون الصغير آمنة مطمئنة .. وكانت ترجو أن يترك هيكليف ليتقون مع خاله ، كما كان معها ، وتجد سرورا في إقناع نفسها بأن أباء كان عزوفا عن الاضطلاع بإعالتهم أو تعليمهم .. فلم يتردد سيدي لحظة واحدة في الاستجابة لرجائها .. وعلى الرغم من نفوره من مغادرة منزله في الزيارات العادية ، كما كان عبده في الآونة الأخيرة فإنه سارع إلى تلبية تلك الدعوة .

وعهد يكاثرين إلى عنايتي الساهرة أثناء غيابه ، وأصدر لي أوامره المشددة ألا أدعها تجوب خارج البستان ، ولو في صحتي .. أما خروجها وحدها فغير لم يخطر له على بال .

وطالت غيبته ثلاثة أسابيع .. غفى اليومين الأولين كانت الصغيرة المعبود بها لعنايتي تجلس في ركن المكتبة وقد منعمها الهزن من القراءة أو اللعب ، وهكذا لم تسبب لي إلا القليل من المتاعب وهي في هذه الحالة بن الهدوء والسكينة .. ثم بنت ذلك فترة من الملل المصحوب بضيق الصدر والساكسة .. وإذا كنت كثيرة المشاغل ، وقد تقدم بي العمر ، وليس في وسعي ان أجاريا في القفز والجري والصمود والهول لتسلتها . فقد استنبطت طريقة تستطيع بها أن نسى نفسها بنفسها .. وذلك بأن أبعث بها لتقوم بالتجوال وحدها داخل حدود المزرعة ، سيرا على الأقدام تارة وراكبة مبرها الصغير تارة أخرى ، ثم أتلحقها بالإصفا ، في صبر وأناة إلى تخص مغامراتها الحقيقية والخيالية ، عندما تعود من جولاتها ..

في الصيف مشرقا بكل روعته وبهجته ، فكانت تجد متعة كبيرة في هذه الزهات الانفرادية ، بحيث كانت كثيرا ما تبقى خارج الدار من وقت الإفطار حتى موعد الشاي بعد الظهر ، ثم عني أسياتها في رواية قصصها الخيالية المثيرة .. ولم أكن حشى أن تخرق الحدود المرسومة لها ، لأن البوابات كانت مغلقة بحكمة الفلق ، ولأنني حبيبها لا تجرؤ على اجتيازها وتنفذ خارجها وحدها لو أنها كانت ..



ثم انطلقت نعدو بالجواد وهى تطلق ضحكة مريحة ، وتسخر
من نصائحي وتحذيراتى بتجنب الإسراع فى السباحة .

100100
www.rivdca.com

ولكنى سرعان ما تبينت سـ لسوء الحظ - أن تقنى لم تكن فى
موضعها .. فقد حضرت لى كاثرين ذات صباح - فى الساعة
الثامنة ، وقالت إنها سوف تكون اليوم تاجرا عربيا يعبر
الصحراء بقافلته ، وأن على أن أوفر لها المزيد من المؤن لنفسها
ولسائر أعضاء القافلة من الدواب ، وهى حصانها وثلاثة
« جمال » ممثلة فى كلب سلوقي كبير واثنين من كلاب
الصيد .. فأعددت لها كمية وفيرة من النطاير والحلوى
وجمعتهن فى سلة علقتها على احد جانبيه سرج الحصان .
وعندئذ اعتلت ظهره فى خفة ومرح ، وقد ارتدت قبعتهن ذات
الحافة العريضة والنقاب الحريري الخفيف ليحميا راسها
ووجهها من شمس يوليو القاسية . ثم انطلقت نعدو بالجواد
وهى تطلق ضحكة مريحة ، وتسخر من نصائحي وتحذيراتى
بتجنب الإسراع فى السير ، والتبكير فى الحضور .. ولكن
الخبئية لم تظهر حتى موعد تناول الشاي ، ولم يعد من
افراد قافلته سوى الكلب السلوقي إذ كان متقدما فى العمر
مفرما بالراحة والاسترخاء .. أما كائى والمهر وكلبا السيد
فلم يظهر لآى منهم اثر فى اى مكان .. وبعثت بالرسول
يجوسون خلال المهرات فى البستان والمزارع ، واخيرا منست
لليبحث عنها بنفسى .. والتقيت بعامل يشتغل فى إصلاح
السباح حول أحد الحقول ، عند حدود مزرعتنا . وسألته إن
كان قد رأى سيدتنا الصغيرة ، فقال :

— لقد رايتها فى الصباح حيث طلبت منى أن اقتطع لينا
غصنا من شجرة البندق ، ثم وثبت بجوادها فوق السور تحت

تلك البقعة التي ينخفض فيها أكثر من غيرها ، وأسرعت تعدو حتى اختفت عن الأنظار !

ولك أن تتصور مبلغ ما اعترانى من جزع لدى سماعى هذه الأنباء ، وخطر لى على الفور أنها لا بد قد ذهبت إلى « صخور بنستون » التي كانت تتوق لرؤيتها عن كثب .. مهتفت أقول لنفسى : « ويلاه ! .. ماذا يكون مصيرها ؟ .. » ثم اندفعت خلال الثغرة التي كان العامل يصلحها في السياج . ومضيت قدما نحو الطريق ، أغد السير كاتنى في سباق ، وأطلع القفار ميلا بعد ميل ، حتى بلغت منحنى أرى عنده « مرتفعات ويذرنج » ، ولكنى لم أنبين أثرًا لكافرين من قرب أو من بعد .. وكانت « صخور بنستون » تقع على بعد ميل ونصف من «سكن بستر هيكليف» ، كما كان ذلك يبعد عن « الجرانج » بأربعة أميال ، وهكذا بدأت أخشى أن يبطئ الظلام قبل أن أستطيع بلوغها . ورحت أغمغم قائلة لنفسى : « وماذا يكون الحال لو كانت قد زلت قدميها في أثناء تسليق الصخور ، فسقطت قتيلة ، أو كسرت بعض عظاميها ؟ .. » والواقع أن جزعى كان اليما أشد الألم ، ولذلك غيرنى سرور الارتياح — بادية ذى بدء — عندها كنت أسرع السير بجوار (المرتفعات) فإذا بى أرى « شارلى » أحد كلبى الصيد ، بل أشربسهما ، ملقى تحت إحدى التوائذ . وقد ورن رأسه وأخذ الدم ينزف من أذنه .. نفتحت باب السور وأسرعت إلى المنزل ورحت أطرق بابه بقوة وليفة ، وما لبث أن فتحت عن امرأة كنت أعرفها ، كانت تعيش من قبل في جبهرتون

والتحقت بالخدمة هنا على أثر وفاة ماستر إيرنشو ، فما كادت قرأتى حتى صاحت :

— آء ! .. هل أتيت للبحث عن سيدتك الصغيرة ؟ .. لا نخشى شيئا .. إنها هنا بخير وسلامة .. ولكنى مسرورة لأنه لم يكن السيد هو الذى يطرُق الباب ..

نعمت بمبورة الأنفاس من المشى السريع والليفة والقلق : — إنه ليس في المنزل إذن ؟

— كلا .. كلا .. لقد خرج هو وجوزيف ولا أحسبهما يعودان قبل ساعة أو تزيد .. أدخلى وأرتاحى قليلا ..

فدخلت ، وإذا بى أرى حلى الشارد جالسة بجوار المدفأة ، تتأرجح في مقعد صغير كان لامها وهى صغيرة .. وكانت قيعتها معلقة في مشجب على الجدار . بينما كانت تبدو في راحة وأطمئنان كأنها في بيتها ، وقد راحت تمرح وتتحدث في طلاقة إلى هيرتون — الذى أصبح الآن شابا قويا في الثامنة عشرة — وهى في أحسن حالاتها النفسية .. وكان هيرتون يحلق بانظاره إليها في دهشة وغضول بالغين ، ولا يفقه إلا أقل القليل من ذلك الفيض المتتابع من الملاحظات والأسئلة التي كان لسانها الذلق لا يكف عن صبها في أذنيه ..

واخفيت فرحتى برؤيتها سالمة وراء قناع من الغضب والاستياء ، وصحت :

— مرحى .. مرحى .. يا آنسة ! .. سوف تكون هذه آخر مرة تركيبين فيها جوادك ، حتى

وما عدت اثق بك او اطمئن إلى اجتيازك عتبة الدار أيتها الفتاة الشقية !

قهقهت في مرح وهي تثب من مجلسها وتسرع إلى جانبي :
— آه يا ايلين ! .. سوف تكون لدى قصة رائعة لأرويبها لك الليلة ! .. ولكن اراك عثرت على ، فهل أثبت إلى هذا المنزل في حياتك قبل الآن ؟

فتجاهلت سؤالها ، وقلت في صرامة :

— ضعى قبعتك وهيا إلى المنزل على الفور .. وإني شديدة الاستياء منك ، يا مس كاثي ، فقد أتيت خطأ جسيما .. ولا غائدة من العبوس أو البكاء ، فإن ذلك لن يجزى ما سببته لى من قلق وجزع بينها كنت أفرع المنطقة طولاً وعرضاً في البحث عنك ! .. وكلما فكرت كيف عهد لى مستر لينتون بالحافطة عليك ومنعك من الخروج من المزرعة ، وإذا بك تتسللين إلى الخارج على هذا النحو ، ازدادت استياء من مسلكك .. وهذا يدل على أنك ثعلب صغير مكر ، ولن يضع أحد ثقته بك بعد ذلك قط !

وكانت قد بدأت في النحيب ، فإذا بها تكف دفعة واحدة ، وتقول :

— ما الذى فعلته ؟ .. ان أبى لم يأمرنى بشيء .. كما انه لن يؤذبنى يا ايلين ، فإنه لم يكن تط صارما قاسيا مثلك ! فعدت أقول :

— هيا .. هيا .. سوف أربط لك شريط القبعة .. والآن

دعينا من المشاكسة .. آه ! .. يا للعار ! .. اتكونين في الثالثة عشرة ! .. وتصرغين كطفلة صغيرة !

وقد غبت بهذه الملاحظة الأخيرة عندما دفعت القبعة عن رأسها وأسرعت تقف بجوار الدفأة بعيداً عن مئاول يدي .. وتدخلت الخادمة قائلة :

— رويدك ، ولا تكونى قاسية على الصبية الطيبة يا مسز دين ! .. إننا نحن الذين جعلناها تتوقف هنا ، إذ كانت تتوق إلى المضى في طريقها ، خشية أن تلتقى عليها .. وقد عرض على هيرتون أن يذهب معها ، وأحسب أنه كان ينبغي أن يرافقها ، لأن الطريق فوق التلال شديد الوعورة ..

وكان هيرتون في أثناء هذا النقاش يقف واضعاً يديه في جيبه سراويله .. وقد استبد به الارتباك فلم يستطع النطق بكلمة واحدة .. وإن كان يبدو غير مرتاح إلى تطفلى ! واستطردت أقول غير مكرهة بتدخل المرأة :

— كم من الوقت يجب أن انتظروها ! .. سمووف يحل الظلام بعد عشر دقائق .. غاين مهرك يا مس كاثي ! .. وأين فينكس ؟ .. سوف أتركك وأمضى لشأنى ، ما لم تسرعى .. غافعلى ما يحلو لك !

— إن المهر في الفناء .. أما فينكس فمحبوس هناك ، لأنه معسوف ، وكذلك شارلى .. وقد كنت على وشك أن أخبرك بكل شيء في هذا الأمر ، ولكنك سبته الخلق ، ولا تستحقين الاستماع إلى روايتى !

والثقلت التبعة من الأرض ، واقتربت منها لأغصيا فوق رأسها ثانية ، ولكنها إذ رأت الشاب والخادمة ينحازان لصفها ، بدأت تنفض حول الحجرة بعيدا عنى .. وشرعت فى مطارقتها فإذا بها تجرى هنا وهناك كالجرذ فوق قطع الإثاث وتحتها وخلفها ، مما جعل استمرارى فى المأردة مثيرا للسخرية ، فضحك هيرتون والخادمة ، وشاركتيهما هى فى الضحك ، وامتعت فى القحة حتى صحت أخيرا فى انفعال شديد :

— حسنا يا مس كائى .. لو أنك عرفت منزل من هذا لكان يسرك ان تفاديه على الفور ..

نظرت هى إلى هيرتون قائلة :

— إنه منزل أببك - اليس كذلك ؟

فلم ينطق إلا بكلمة « كلا » ، وقد أغصى بنظرانه إلى الأرض واحمر وجهه احمرارا شديدا من الخجل .. فلم يكن يقوى على المصمود أمام نظراتها الثابتة ولو أن عينيهما كانتا تسببها عينية تماما ..

فعدت تسأله :

— منزل من إذن ؟ .. سيدك ؟

فازداد تورد وجهه عمقا حتى غدا أرجوانى اللون - ولكن عن شعور يختلف عن شعوره الأول « وغغم بكلمة سباب » ثم اشاح بوجهه بعيدا ..

فاستطردت الفتاة المتعبة وهى توجه لى الخواب :

— من هو سيده ؟ .. لقد كان يتكلم فيقول « بيننا » ، و « قومنا » .. ولذلك حسبته ابن صاحب المنزل .. ثم إنه لم يقل أبدا « يا سيدتى » وهسو يخاطبنى ، وكان يجب ان يقولها إذا كان خادما ، اليس كذلك ؟

نفذا وجه هيرتون رماديا دالكا كسحابة كثيفة مشحونة بالرعد . بيننا جذبت محدتى فى صمت ، واغلقت أخيرا فى إعدادها للرحيل .. وما لبثت ان خاطبت ابن خالها المجهول بمثل ما تخاطب واحدا من سياس « الجرانج » قائلة :

— اذهب الآن واحضر جوادى .. ويمكنك ان تأتى معى ، غايى أريد ان أرى أين ينهض صائد العفاريث من وسط المستنقعات ، واسمع الحديث عن الجنيات كما تسميهن .. ولكن انزع ! .. ماذا دهاك ؟ .. لقد أمرتك بأن تحضر لى الحوائى ..

فزجر الشاب قائلا : « سوف أراك هالكة فى الجحيم قبل ان أكون خادما لك ! » .

فقال كاثرين فى دهشة : سوف ترائى ماذا !

— هالكة فى الجحيم ايها الساحرة السليطة اللسان !

فدخلت قائلة :

— كفى يا مس كائى ! .. لقد رأيت أنك زججت بنفسك فى رغبة غير لائقة بك .. امثل هذه الألفاظ توجه إلى سيده شابة ؟ .. ولكنى أرجوك ألا تبدلى النقاش والشجار معه ، وتعالى نبحث عن « المهر مبنى » بنسنا ونرحل من هنا ..

فهمت تقول ، وقد شلت الدهشة البالغة حواسي :

— ولكن كيف جرؤ على مخاطبتي بهذه اللجة يا ايلين ؟
.. اليس المفروض أن يطيع ما أمره به ؟ .. سوف خير
أبى بما قلته أيها المخلوق الشرير .. والآن !

فلم يبد على هيرتون ما ينم على اكترائه بهذا الوعيد ، وهكذا
انبتقت الدموع من عينيها لشعورها بالهانة ، وتحولت إلى
المرأة ، صانحة :

— اذهبي انت فأحضري المهر واطلعي سراح الكلب في الثو
واللحظة !

فاجابتها الخادم :

— حنانك يا آنسة ! .. إنك لن تخسري شيئاً بالركة وحسن
المعاملة .. ومع ان مستر هيرتون هذا ليس ابن صاحب "الدار"
إلا أنه ابن خالك .. أما أنا فلم يؤجرني أحد لخدمتك !

فصاحت كاثارين في ضحكة ساخرة : هو ؟ .. هو ابن
خالى أنا ؟ ..

— نعم .. هذه هي الحقيقة ..

فنظرت إلى في قلق بالغ وتابعت الحديث :

— آواه يا ايلين ! .. لا تدعيهم يقولون مثل هذه الاشياء
الفليعية .. لقد ذهب أبى ليحضر ابن عمي من لندن ، وهو
ابن أحد السادة ! .. أما هذا ..

وكفت عن الكلام وانفجرت باكية ، إذ قلب كيانياً مجرد
التفكير في وجود صلة من القرابة بينها وبين هذا المجرع ..

نهمست أقول لها :

— صه .. صه ! .. إن الناس يمكن أن يكون لهم أبناء
عمومة وأبناء خؤولة عديدون ومن كل نوع ، يابس كائى ،
دون أن يسوؤهم ذلك .. وكل ما في الأمر أنه لا ينبغي لهم أن
يختلطوا بهم أو يلزموا صحبتهم إذا كانوا شريرين بغضاء ..

— ولكنه ليس .. إنه لا يمكن أن يكون ابن خالٍ يا ايلين !
وكانت كلما أمنت التفكير في الأمر ازدادت حزناً وهماً ،
حتى ألقت بنفسها بين ذراعى كائيا تحتمي بي من هذه الفكرة ..

لما أنا فقد اشتد بي الضيق والكدر منها ومن الخادمة معا
لتصريحاتهما المتبادلة ! .. فلم اشك لحظة أن قرب وصول
لينتون ، الذى ذكرته كائى ، سوف يبلغ لستر هيثكليف ..
وكنت موقنة أشد اليقين من أن أول ما ستفعله كاثارين عند
عوده والدها هو أن تطلب منه إيضاحاً لما ذكرته الخادمة عن
قرباتها لهذا الفتى الجلف السيئ الأدب !

وكان هيرتون قد افاق من نفوره واشتمزازه من اعتباره
أحد الخدم ، وبدأ عليه القائر لحزنها وأسائها .. فمضى
وأحضر المهر أمام الباب ، ثم أراد استرضاءها فأخذ من الوجار
جرواً صغيراً معوج السيتان ووضعها في يدها وهو يطلب إليها
أن تهدي من روعها لأنه لم يكن يقصد شيئاً .. فتمهل في
البكاء ريثما رمقته بنظرة فاحصة ملؤها الخوف والفرع ، ثم
انفجرت باكية من جديد !

ولم استطع مغالبة الابتسام لهذا النفور من الفتى المسكين
الذى رأيته الآن شاباً رياضياً متيناً

صحة وعافية ، إلا أنه يرتدى ثيابا خشنه رثة ثلاث أعماله اليومية في الحقل ، وجولاته الدائمة في البراري سسعا وراء الأرائب الجبلية وغيرها من أنواع الصيد والقتل . ومع ذلك خيل إلى أنني أستطيع أن استشف وراء محباه عقلا يحوى من الصفات والمزايا ما لم يتح لأبيه قط . ومن المحقق أن هناك أشياء كثيرة طيبة تختفى وسط الأعشاب والحشائش ويطلق عليها تكارها الكثيف السريع فيخفى تحته نموها البطيء الذى لا يجد العناية الكافية لى يؤتى ثماره . ومع ذلك فقد رأيت الدلائل على تربة غنية قد تغل ثمارا وغيرة لو اتحت لها ظروف أكثر ملاءمة . وأحسب أن مستر هينكليف لم يسيء معاملته بدنيا ، والفضل فى ذلك يرجع إلى طبيعة الفتى الذى شرب لا يعرف الخوف ، والتي كانت بذلك لا تتيح الفرصة للإغراء بمثل هذا النوع من الاضطهاد . فلم يكن على شيء من الخجل والاستكانة التى كان يمكن لهينكليف أن يجد فيها دافعا لسوء معاملته له . وهكذا يبدو أنه إنما كرس حقه وضغيفته لجعل منه بهيما جاهلا غط الخلق . فلم يلقن شيئا من مبادئ القراءة والكتابة ، ولم يزر يوما عن خلة سيئة طالما لم تكن تسبب لسجانه ضيقا أو غضبا ، ولم تقد قدماء خطوة واحدة فى طريق الفضيلة ، ولا صين خلقه بنصيحة واحدة عن مياوى الرذيلة . وكان لجوزيف - فيها سمعت - نصيب وغير فى دماره ، إذ كان تحيزه له - وهو تحيز ناجم عن ضيق عقله - يدفعه إلى تملقه وتدليله بذكاء صبيها صغيرا ، لأنه كان يعمده رأس العائلة العربية القديمة . وبينما كان لا ينفك يهتم كاثرين ايرنشو وهينكليف - عندما

كانا صغيرين حدثين - بإشارة السيد واستنفاد صبره ، دفعه بذلك إلى البحث فى الخمر عن الملوى والعزاء مما كان يسميه « أساليبهما الشريرة » ، فإنه صار الآن يلتقى عبء اخطاء هيرتون تكلما على عاتق الغاصب الذى سلب املاكه . فإذا انطلق الصبى فى السباب لم يحاول تهذيبه ، وكذلك لم يحاول تقويمه . فيما كان مسئله مليئا بالذنوب والاطشاء . وبظن ان جوريف كان راضيا كل الرضى وهو يراه ينحدر إلى أسوا مدى . فقد سمح بدمار الصبى ، وبترك روحه تبيم فى وديان الضلال ، لا لشيء إلا لاعتقاده بأن هينكليف هو الذى سوف يفكر عن ذلك كله .! . وكان يعتقد أن هيرتون يجب أن يحتفظ دماء أسرته العريقة فى ذرية ينجبها ، فكان يجد فى هذه الفكرة عزاء ما بعده عزاء . وكان جوزيف لا يفتأ يصب فيه ، فطرة بعد فطرة ، كبرياء الاعتزاز باسم عائلته وسلالته . وكان يود - لو وجد الجرأة على ذلك - أن ينمى فيه الحد والكراهية نحو مالك « مرتفعات ويدرنج » الحالى . ولكن غزعه ورهبته من ذلك المالك كانا قد بلغا مرتبة الفرع من الشياطين والأرواح الشريرة .! . فكان يقتصر مشاعره حياله على الغمز والتلميح فى غمغة خافتة ، وعلى الوعيد بالويل والبُور . فى سره .! . ولست أزعم أنني أعلم عن يقين مجسرى الأمور فى « مرتفعات ويدرنج » فى تلك الأيام ، وإنما أروى ما كنت أسمع ، لأننى لم أكن أرى هنا إلا أقبل القليل . وكان القرويون يؤكدون أن مستر هينكليف رجل شحيح يسوم مستأجره العذاب ويذلهم .

أشهد ، والحق يقال ، أن المنزل من الداخل استعاد مظاهره القديمة من النظافة وتوفر وسائل الراحة ، تحت إدارة النساء اللواتي استخدمهن ، وأن مشاهد العريضة والشعب التي كانت تمثل أيام هندلي لم يعد لها وجود بين جدرانها الآن .. فقد كان السيد من الحزن والكآبة بحيث عزف عن مخالطة الناس ونشدان صحبتهم ، خيارهم وأشرارهم معا .. وما زال كذلك حتى الآن ..

ومهما يكن من أمر فإن ذلك لا شأن له بهجرى قصتي .. ولنعد إلى مس كاثي ، فقد رفضت قبول هدية الصلح ، وهي الجرو الرضيع ، وطلبت أن يؤتى لها بكليهما « شارلي وفينكس » ، فجاءا يمرجان ، وقد تدلى رأساهما .. وعندئذ بدأنا في رحلة العودة إلى المنزل ، على أسوأ ما تكون الرحلات ، وكل واحدة بنا تحبل ههما وأساها .. ولم أفلح في أن استخلص من سيدتي الصغيرة كيف قضت يومها ، سوى ذلك الشيء الذي حدثته ، وهو أن كميتها كانت في ذلك اليوم « سخور بنستون » .. وأنها وصلت بغير حادث حتى باب المرتفعات ويدرنج) ، عندها تصادف اندفاع هيرتون وفي صحبتها رفقة من الكلاب لم تلبك أن حاجبت قافلتهما .. وكانت المعركة حامية الوطيس حتى استطاع سادة الفريقين التفريق بينهما .. وكان هذا الحادث سببا للتعارف بينهما ، فقد أطلعت كاثرين هيرتون على شخصيتها ، وأخيرته بما اعتزمته من الذهاب إلى القللا ، ثم سألتها أن يرشدتها إلى الطريق ، وأخيرا اسلدرجته إلى مصاحبتهما .. وقد كشف لنا عن أسرار « كيف

الجنيات » وعشرات غيره من الأماكن العجيبة .. ولكنها ، وقد كانت غاضبة بنى ، لم تر أن تمن على بوصف ما شاهدها من الأسماء المسلية الغريبة .. ومع ذلك استطعت أن أقبين أن رفيقها ودليلها كان موضع رضاها حتى آنت شعوره بمخاطبتها كأحد الخدم ، وحتى آنت خادمة هيكليف شعورها بما زعمته من أنه ابن خالها ! .. ثم جاءت تلك الألفاظ الشنيعة التي وجيها إليها غلات قلبها حقدا والمأ ! .. وهي التي كانت تسمع دائما ألفاظ « حبيبتي » و « عزيزتي » و « ملكتي » و « ملاكي » يخاطبها بها كل إنسان في « الجرائج » ، موجه إليها الآن السباب الشائن من شخص غريب ! .. أنها لم تكن تفهم لذلك سببا .. وقد بذلت جهدا شاقا لأنال منها وعدا باخفاء أحزانها عن والدها « وشرحت لها كيف أنه لا يرتاح إلى أى مخلوق من يسكنون « المرتفعات » ، وكم يكون مبلغ أسفه وأساها لو عرف أنها كانت هناك .. ولكن النقطة التي ألحقت فيها كثيرا ، هي تلك الحقيقة الواقعة هي أنها لو أفشت له أهالي لأوامره ، فربما بلغ به الغضب إلى حد يضطرنى إلى ترك المنزل .. ولم تكن كاثي لتقوى على احتمال هذه النتيجة الاليمة ، ومن ثم وعدتني بكمال الأمر ، إكراماً لى ، وحافظت على هذا الوعد .. فقد كانت ، على أية حال ، فتاة رقيقة الشمور حلوة السمائل ،

الفصل التاسع عشر

ثم وافاني خطاب مجلج بالسواد ، يعلن موعد عودة سيدى .
نقد ماتت ايزابيلا ، وكتب لى السيد طالبا تحضير ثياب الحداد
لابنته ، واعداد حجرة خاصة ، وغيرها من وسائل الراحة ،
لابن أخيه الصغير .. وقد جنت كاثارين فرحا من التفكير فى
قرب استقبالها لأبيها عائدا من رحلته ، واستسلمت إلى
تصورات حماسية لما ترجوه من مزايا لاعداد لها لابن عمها
« الحقيقى » .. ثم حلت تلك الأمسية التى كنا نفوق وصولها
فيها .. وكانت كاثارين منذ الصباح الباكر منهكة فى ترتيب
أشياءها الخاصة الصغيرة .. أما الآن ، وقد ارتدت ثوبها
الأسود الجديد - ويا للطفلة المسكينة ! - إن موت عمها لم
يغير نفسها بحزن واضح المعالم - فقد اضطرتنى بمضايقاتها
الكثيرة المستمرة ، إلى السير معها حتى نهاية أرخصا لتكون فى
استقبالها ..

ومضت تثرثر ونحن نقبشى البهيتى فوق المرتفعات
والمخفضات المكسوة بالعشب الندى تحت ظلال الأشجار :

- ان ليتون لا يصغرنى إلا بسعة شهور .. فما أجمل أن
يكون رفيقى فى اللعب ! .. وكانت عمتى ايزابيلا قد بعثت
إلى أبى بخصلة من شعره الجميل ، فإذا به لا يقل نعومة عن
شعرى وإن كان يفوقه فى خفته وشقرته .. وقد احتفظت
بها فى عناية داخل صندوق صغير من الزجاج ، وكثيرا ما كنت

افكر أنه سوف يكون أمرا بهيجا لو أتيج لى أن أرى صاحبها
عيننا ! .. آه ! .. اننى سعيدة حقاً ! .. فيها هو أبى العزيز ،
أبى المحبوب يوشك على المجئ ! .. تعالى يا ايلين .. دعينا
نجر إلى البوابة .. تعالى نجر معا ..

واخذت تعدو ، ثم تعود ثانية ثم تجرى لتمود من جديد
عدة مرات ، قبل أن تسعبنى خطواتى المثددة الكليّة ببلوغ
البوابة .. وهناك جلست فوق العشب الأخضر على جانب
المر ، وحاولت جعلها تتذرع بالصبر فى الانتظار .. ولكن ذلك
كان محالا .. فلم تستقر فى جلستها دقيقة واحدة ..
وكانت لاننى تهتف بى :

- ما أشد بطئها فى الحضور ! .. آه ! .. اننى أرى
سحابة من الغبار فى الطريق .. فلعلمها قادمان ؟ .. ولكن
لا .. متى يصلان إلى هنا إذن ؟ .. الا نمضى فى الطريق
قليلًا يا ايلين ؟ .. نصف ميل مثلاً ؟ .. مجرد نصف ميل فقط ؟
.. الا قولى نعم .. دعينا نهمض حتى تلك الخميلة من الشجر
عند منعطف الطريق !

ولكنى رفضت فى إصرار .. وأخيرا انتهى انتظارها ، فقد
ظهرت عربة السفر وهى قادمة تعدو فى الطريق .. وصاحت
بمس كاثى ومدت ذراعها إلى الأمام ، عندما رأت وجه أبيها
يطل من النافذة .. وهبط أبوها من العربة وهو لا يقل عنها
لهنة وشوقا ، فمضت فترة طويلة قبل أن يفكر أحدهما فى
شئ غير شخصيتها .. وانتبهت غرسة انتظارها فى

العناق والقبيلات ، فمضيت أختلس النظر إلى لينتون الصغير ، وكان نائما في ركن المقعد ، متدثرًا بمعطف سميك ذي أطراف من الفراء ، كما لو كنا في صميم الشتاء . فوجدته غلاما شاحب الوجه ، رقيق الجسم ، تحسبه فتاة لما يبسود في مظهره من ضعف أنثوي . وكان الشبه بينه وبين سيدي من القوة بحيث تخاله أخاه الأصغر . . ولكن كان في مظهره من الوهن والضعف والمرض ما لم يكن لانجار لينتون قط . . ورأى سيدي أنظر إلى الغلام ، فنصحتني - بعد أن صافحتني - بأن أغلق باب العربية وأن أدمه نائما لأن الرحلة اتعبته . . وكانت كاشي تتوق إلى أن تلقى عليه نظرة ، ولكن والدها طلب إليها أن ترافقه ، ومشيا سويا في الحديقة ، بينما أسرعنا سبقهما لأخبر الخدم بمقدم السيد . .

ووقفنا عند أسفل الدرج الأمامي ، حيث قال مستر لينتون مخاطبا ابنته :

- والآن يا عزيزتي . . ان ابن عمك ليس في مثل قوتك او محرك ، ولا تنسى أنه فقد والدته منذ عهد قصير . . فلا تنتظري منه أن يشاركك اللعب والجري من أول يوم . . كما أرجو ألا تثقل عليه بالكلام ، وأن تدعيه هادئا هذا المساء على الأقل . .

فأجابت كاثارين :

- سمعا وطاعة يا أبتاه ! . . ولكني أريد أن أراه ، فانه لم يطل من العربية مرة واحدة !

ووقفت العربية أمام الدرج فأوقفنا النائم وحمل إلى الأرض حيث وقف إلى جوار خاله ، الذي وضع يده الصغيرة في يده ابنته ، قائلا :

- هذه ابنة خلك كاشي ، باليتون . . وقد أولعت بك من قبل أن تراك ، فلا تحزنها بالبكاء اللبلة . . وحاول أن يتكلم . . أن فقدت الرحلة الشاقة ، ولم يبق إلا أن تنال قسمة من الراحة وأن ترحل كما تشاء . .

فتراجع الغلام نائما من مصافحة كاثارين ، ورفع يده لمسح عرقه التي بدأت تتلألأ بين أهدانه ، ثم قال :

- دعني أذهب إلى الفراش إذن . .

فجسست قائلة له . . بينما كنت أقوده نحو باب المنزل :

- تعال . . تعال ، أيها الغلام الطيب . . انك بذلك تدفعها إلى البكاء مثلك . . انظر كيف تبدو حزينة من أجلك !

ولست أدري هل كان اكتئابها بسببه أم من أجله ، ولكن الواقع أن ابنة خاله كان يخيم على أساريرها من الحزن والكآبة مثلما كان يبدو في محباه ، عند ما رجعت ثانية إلى جانب والدها . . ودلف ثلاثتهم إلى المنزل ، وارتقوا الدرج إلى قاعة المكتبة ، حيث كان الشاي معدا لهم . . ومضيت أنزع قبعة لينتون ومعطفه ، ثم أجلسته فوق أحد المقاعد بجوار المائدة ، ولكنه ما كاد يجلس حتى بدأ في النحيب من جشده . . غساله السيد عن سيب بكاؤه ، فأجاب وهو يشرق بدموعه :

— اننى لا استطيع الجلوس على المقعد .

فقال خاله فى حلم واثانة :

— اذهب إلى الأريكة إذن ، وسوف نحمل إليك اللبن

نشأى ..

وشعرت بان السيد قد لقى عناء شديدا طوال رحلته ،
بسبب ربهه الليل المشاكس . وأنه قد تحمله فى صبر وحلم
لا ينفدان ..

وراح لينتون يجبر قدميه المتضاقتين حتى بلغ الأريكة .
استلقى فوقها ، بينما حملت كائى قدحها ومقعدا منخفضا .
وانت تجلس بجواره .. وليثت صامئة فى بادية الأمر .
ولكن ذلك لم يطل كثيرا ، فقد استقر عزمها على أن تجعل
من ابن ممتها الصغير ملهاة لها ، كما أرادت أن يكون بالنسبة
إليها .. فبدأت تربت على خصلات شعره ، ومقبل وجهته .
وتقدم له الشاى فى طبق ففجأنا كأنه طفل صغير . نسره
ذلك كثيرا ، لأنه فى الواقع لم يكن أكثر من طفل غريب . وأخذ
يجفف عينيه من الدموع ، وقد أضاء محياه بابتسامة خائرة :

فقال لى السيد بعد أن ظل يرقبهما لحظة :

— أوه ..! سوف يطيب له العيش هنا كثيرا . إذا استظمتنا
أن نحفظ به هنا يا ايلين .. فان صحبة طفلة فى سنه فى نبيت
أن تفقت فيه روحا جديدة ، وسوف تساعد رغبتيه فى
الاستزادة من الصحة والقوة ، على اكتسابها سريعا ..

فقلت فى نفسى : أجل .. إذا استدعنا أن نحفظ به هنا :



فبدأت تربت على خصلات شعره ، ومقبل وجهته ،
وتقدم له الشاى فى طبق ففجأنا كأنه طفل صغير ..

.. غدد اكتنفتني موجة من الرمية والتوجس الأليم - من أنه لم يكن ثمة في ذلك غير أمل ضئيل .. ورحت أفكر كيف يمكن لهذا الغلام العليل البوزيل أن يعيش في " مرتضعات ويذرنج " ؟
.. راية رغبة تلك التي ستجمع بينه وبين أبيه وهيرتون . راية دروس تلك التي سوف يلقاها عندها !

ومن المؤلم أن شكوكنا سرعان ما تحققت . بل بأسرع مما كنت أتوقع .. كنت قد أخذت الصغيرين إلى الطابق العلوي ، بعد أن أفتتيا من تناول الشاي ، وانظرت بجانب لينتون حتى استغرق في النوم - إذ لم يشأ أن أقارعه حتى ينسام - ثم نزلت إلى الطابق الأرضي حيث وقفت إلى جوار المائدة في البهو أشعل شمعة لجرة نوم مستر ادجار ، عندها قدمت خادمة من المطبخ لتقول لي إن جوزيف ، خادم مسر هيثكليف ، بالباب يطلب التحدث إلى السيد .. غسرت في بدني وحسدت عنيقة ، وقلت :

— سوف أسأله أولاً عما يرغبه ، فأنها ساعة غير ملائمة لإزعاج الناس ، وفي اللحظة التي يعودون فيها من رحلة طويلة .. ولست أظن السيد على استعداد لأن يراه ..

وكان جوزيف قد عبر المطبخ ، بينما كنت أنطق بهذا القول . ودلف إلى البهو .. كان متسربلاً في رداء الأعياد والأحاديث . وقد اكتسى وجهه النخيم سمعة من المشاكسة والتظاهر بالتقوى .. وكان يمسك قبعته بيد ، وعصاه باليد الأخرى . وقد راح ينظف حذاءه في ممسحة الأرجل ..

غفلت له ببرود :

— طاب ساؤك يا جوزيف .. أي أمر أتى بك إلى هنا لليلة ؟

— جانب وهو يزيحني بيده جانباً في أزدراء :

— إنه مسر لينتون الذي أريد أن أتحدث إليه ..

— أن مسر لينتون على وشك الذهاب إلى الفراش ، فإذا لم يكن ما تريد قوله له شيئاً هاماً . غائني على يقين من أنه غير مستعد لسماعه الآن ..

ثم نابت كلامي قائلة :

— وخير لك أن تجلس . وتعهد إلى برسالك ..

فراح يجبل نظاره في الابواب المغلقة المتجاورة ، ثم قال :

— أيها حجرته ؟

فذكرت أنه مصر على رغض وسألتني . وهكذا صعدت في نور بالغ إلى المنصة ، وانلت للسيد مقدم ذلك الزائر الذي يحضر في وقت غير ملائم للزيارة ، ناصحة له بأن يرغب بمقابلته ويستقبله إلى اليوم التالي .. ولكن قبل أن يتسمع الوقت أُلهم مسر لينتون ليفوضني في أداء ذلك . كان جوزيف قد صعد في أعقابى - واندفع إلى داخل الحجرة حيث وقف عند طرف المائدة القصي .

فوق قمة عصاه ، ثم اندفع يقول بصوت جيئورى : كأننا كان يتوقع معارضة أو رفضا لمطالبه :

— لقد أرسلنى هيثكليف لأخذ غلامه ، ولن أعود بدونه !

فاخذ ادمجار لينتون إلى الميت لحظة ، وقد خيمت على اساريره سحابة من الحزن البالغ .. إنه من جانبه خليق بأن يشفق على الغلام ويرثى لحاله ، فوق أنه ذكر آمال ايزابيلا ومخاوفها وتمنياتها اللطيفة لولدها . عند ما استودعته أياد وعهدت به إلى عنايته ورعايته ، غاستبد به حزن مرير لمجرد التفكير في التخلي عنه ، وراح ينقب في أعماق نكره وقلبه عن طريقة يتجنب بها الاستسلام لطلب هيثكليف .. ولكن القريجة لم تسعفه بأية خطة تستهدف هذه القابة ، كما أنه لو كشف عن أية رغبة في الاحتفاظ بالغلام ، فإن ذلك سوف يزيد آباء تشبثا واستمساكا به .. ولم يبق أمامه إلا أن يسلمه لأبيه .. ولكنه ، مهما يكن من أمر ، لن يرضى بإيقاظه من النوم في هذه الساعة ..

وعندئذ قال في هدوء :

— أخبر مسرر هيثكليف أن ابنه سوف باتى إلى « مرتفعات ويذرنج » غدا .. فإنه في فرائسه الآن ، وفي حالة من الإعياء لا تسمح له بقطع هذه المسافة الطويلة .. ويحكك أن تخبره

أيضا أن والدته لينتون كانت تود أن يبقى في رعايتى ، إذ أن مسحه الآن ضعيفة وتحتاج للمزيد من العناية ..

فصاح جوزيف وهو يدق الأرض بعصاه ، ويقول بلهجة جادة :

— كلا .. إن ذلك لا يعنى شيئا بالنسبة له .. فإن هيثكليف لا يقيم وزنا للام ، ولا لك ! .. ولكنه سوف يسترد ابنه ، ولا يدلى من أخذه الآن !

فقال مسرر لينتون في حزم وصرامة :

— لن تأخذ الليلة .. ولأن ، أنزل حالا ، واذهب إلى سيدك فأعد على مسامعه ما قلته لك .. خذيه يائلى إلى نحت .. اذهب !

ثم أمسك بذراع المعجوز الثالث ودفعه إلى خارج الحجرة ، وأغلق الباب دونه .. فصاح جوزيف وهو يتسحب في بطء وتميل :

— حسنا جدا .. سوف يحضر بنفسه غدا .. وعليك أن تطرده هو الآخر . إذا جرؤت !

الفصل العشرون

رأى مستر لينتون ، تجنباً لخطر تنفيذ هذا الوعيد ، أن يكلفني بأخذ الصبي إلى دار أبيه ، في الصباح الباكر ، على ممر كاثارين الصغير ، ثم اضاف قائلاً :

— ما دام أمر هذا الغلام قد خرج من يدي الآن . ولم يعد لنا سلطان على مصيره ومستقبله ، سواء اكان حسناً أم سيئاً . فانه يجب عليك الا تذكري لابنتي كلية واحدة عن المكان الذي ذهب إليه . . لانها لا يمكن ان تفصل به من الآن فصاعداً ، وإن الخير لها ان تظل جاهلة بوجوده في مكان قريب . لئلا يستبد بها القلق ، وتتوق إلى زيارة « المرتفعات » لرؤيته . . تقول لها فقط إن أباه قد بعث في طلبه نجاة ، فاضطر إلى غراقتنا . .

وقد اظهر لينتون الصغير شجراً ونفورا من إيقاظه من غراشه في الساعة الخامسة ، وأبدى دهشته البالغة عند ما أخبرته بوجود الاستعداد لرحلة جديدة . . ولكن هونت عليه الأمر بأن قلت له إنه ذاهب لقضاء بعض الوقت مع أبيه ، مستر هيكليف ، الذي اشتدت رغبته في رؤيته بحيث لم يطق تأجيل هذه السعادة حتى يرتاح الغلام من رحلته الطويلة . .

فصاح الغلام في حيرة غريبة ودهشة بالغة :

— أبي ؟ . . أبي أنا ؟ . . إن أمي لم تذكر لي قط أن لي أباً ! . . وابن يقيم هذا الأب ؟ . . انني أفضل البقاء مع خالي . .

— إنه يقيم على مسافة قريبة من « الجرائج » . . وراء هذه التلال تباعا . . والمكان لا يبعد كثيراً عن هنا بحيث يمكنك أن تأتي سيرا على الأقدام عند ما تستكمل صحتك وتستعيد قواك . . ثم انك يجب ان تسر للذهاب إلى دارك ورؤية أمك . . وعليك أن تحاول أن تحبه ، كما كنت تحب أمك ، وعندئذ سوف تجد مته كل حب وشغف بك . .

سألني لينتون :

— ولكن لماذا لم أسمع عنه من قبل ؟ . . ولماذا لم تكن أمي تعبر مع كسائر الناس ؟ . .

— كانت أعماله تستلزم بقاءه في الشمال ، على حين كانت صحة والدتك تقتضي إقامتها في الجنوب .

فعاد الغلام بسأل في إلحاح :

— ولماذا لم تحدثني أمي عنه إذن ؟ . . لقد كانت تحبني كثيراً . . من خالي فتعلمت أن أحبه من زمن طويل . . فكيف يمكن أن أحب أبي . . وأنا لا أعرفه ؟ . .

قلت :

— زود . . . ان الأطفال جميعاً يحبون والديهم . . ولمسل والدتك خست أن ترغب في الذهاب إلى أبيك والإقامة معه إذا كثرت من التحدث منه أمامك . . ولكن لنسرع الآن . . غان الركوب مبكراً في مثل هذا الصباح المشرق الجميل خير من النوم ساعة أخرى . .

— وهل هي ذاهبة معنا ؟ . . تلك الفتاة الصغيرة التي رتبنا أمس . .

فأجبتة : كلا .. إنها لن تذهب الآن ..

فأردف بسألني : وهل يذهب خالي معنا لا ..

قلت : كلا .. سوف تذهب إلى هناك في رغتي ..

فعاد يستلقي في غرائشه ويدس رأسه في الوسادة ، وقد استغرق في التفكير وعلا القطوب أباريره ، وما لبث أن انخرط في البكاء قلثلا :

— اننى لن اذهب من غير خالى .. فما ادرانى إلى أين تريد أن تأخذينى !

وحاولت إقناعه بأن إظهاره النفور من لقاء أبيه أمر غير كريم .. ومع ذلك ظل يقاوم ، في عناد وإصرار . محاولاتي تهينته للخروج ، حتى اضطرت إلى الاستعانة بالسيد الملاذلقه وملايئته حتى ينهض من الفراش .. وأخيرا قام الغلام الممكن ، بعد أن بذلنا له الوعود والتأكيدات — الزائفة طبعاً — بأن غيابيه لن يطول ، وأن مستر ادجار وكائى سوف يزورانه هناك ، وغير ذلك من الوعود « الزائفة » الأخرى التى كنت اخترعها وأرددها على مسامعه بين وقت وآخر أثناء الطريق .. وقد أثر فيه الهواء النقي المنعش الحمل بعير الزهور البرية ، وأشعة الشمس المشرقة ، والخبز الرقيق للمير « ميني » ، باشاعة الأمل والبهوة في نفسه واحلالهما محل الاضطراب والفنوط .. فلم تمض لحظات على مسيرنا حتى بدا يعطرنى بالأسئلة عن بئته الجديد . وعن قاطنيه . في اهتمام وحيوية متزايدين .

فقد استدار ليلقى نظرة أخيرة على الوادى الخصيب الذى كان يتصاعد منه ضباب رقيق فيتجمع في سحابة أثمبه بالقطن المندوف عند حافة القبة الزرقاء ، وما لبث أن سألنى : — هل « مرتفعات وبدرنج » مكان بهيج مثل « ثرشكروس جرانج » ؟ ..

فأجبتة :

— إنه غير محاط بالأشجار الكثيفة مثله ، كما أنه ليس في سعته وفسحته .. غير أنك هناك تستطيع أن ترى جمال الريق حولك على مدى بعيد .. ثم إن الهواء هناك سوف يساعد على تقدم صحتك . إذ هو أكثر جفافا وسذوبة .. ولعلك - في بادئ الأمر ، تجد المبنى عتيقا قاتميا ، مع أنه منزل محترم يعد ثلثي اثنين هما أفضل منازل هذه المنطقة .. وسوف تستمتع بجولات لطيفة بين الأحرار ، كما أن هيرتون أبرنشو — وهو ابن خال مس كائى ، وبالتالي يعد قريبا لك — سوف يريك أجمل المواقع وأروع المناظر .. وسيكون في وسعك أن تجعل كتابا ، عند ما يكون الجو جميلا ملائما ، فتتخذ من العشب الأخضر ركنا للدرس والاستمتاع بالقراءة .. كما أن خالك قد يصحبك في زهرة على الأقدام ، فانه كثيرا ما يخرج للمشى فوق التلال ..

— وما شكل أبى ؟ .. أهو شاب كخالى ، وفي وسامته وطره ؟ ..

— إنه في مثل سنه ، ولكنه أسود الشعر والبشرة ، وأخضر منه عيوسا وصرامة .. وهو أطول ..

ولمك لا تجده ، في بادئ الأمر ، رفيقا عطوفا ، لأنه ليس من طبيعه أن يكشف عن عواطفه .. ولكن عليك أن تكون معه صريحا ودودا .. ومن الطبيعي أن يزداد حبا لك وولعا بك أكثر من أى عم أو خال ، لأنك ابنه ..

نفغم لينتون :

— أسود الشعر والعينين ؟ .. اننى لا أستطيع أن اتصوره .. وعلى ذلك غانى لا اشبهه ، اليس كذلك ؟ ..

.. لا تشبهه كثيرا ..

ولكنى قلت في نفسى وأنا انظر إليه : « يل أنك لا تشبهه البتة » .. بينما رحت أتأمل بشرته الناصعة المياض وجسده النحيل ، وعينيهِ الواسعتين الناعستين - اللتين تشبهان عيني أمه . إلا أنهما لا يشع منهما أى أثر لروحها الوثابة المتألنة . فيها عدا لحظات خاطفة تومضان غيبا من أثير المرس الذى ينهكه ..

وتنبهت على صوته وهو يشغم :

— اليس من العجيب أنه لم يحضر قط لرؤية أمى أو رؤيتى ؟ .. قبل رأتى من قبل ؟ .. إن كان قد فعل : فلا بد اننى كنت طفلا صغيرا ، لأننى لا أذكر أقل شيء عنه !

فأجبت :

— لا تنس يا سيد لينتون أن ثلاثمائة ميل مسافة عظيمة . كما أن عشر سنوات تبدو مختلفة في طولها في نظر شخص

كبير عما هى في نظرك انت .. ولعل مستر هيثكليف كان يعتزم الذهاب إليك من صيف لآخر ، ولكنه لم يجد الفرصة المواتية قط . حتى غات الألوان الآن .. وأرجو ألا تزعجه بالأسئلة في هذا الأمر ، فإن ذلك سوف يضيقه ، دون جدوى أو فائدة ..

وشغل الغلام بالاستغراق في افكاره وتأملاته بقية رحلتنا ، حتى وقف بنا المير أمام بوابة الحديقة عند المنزل الريفى .. ورحت أراقبه خفية لأتبين في أساريه المشاعر التى تخلق بنا نفسه . فرائقه تأمل الواجبة المنقوشة ، والنوافذ ذات النجارات المنحنية ، وخمائل عنب الدب المتناثرة ، وأشجار البحر المائلة على سوقها ، في اهتمام بالغ رصين . ثم يهز رأسه ! .. كانت مشاعره الخاصة تقضى استباحنا للمنظر الخارجى لمقره الجديد ، ولكنه كان من اللباقة بحيث أرجا تدمره وشكواه . لعله يجد في الداخل ما يعوضه عن هذا القبح الذى أثار استهزائه ..

وقبل أن يترجل عن مهده . مضيت وفتحت الباب .. كانت الساعة وقفت قد بلغت السادسة والنصف . وكانت الأسرة قد غرعت لقوها من تناول طعام الإفطار ، وأخذت الخادم في إزالة بقايا المائدة وتنظيفها .. وكان جوزيف يقف بجوار مقعد سيده ويتحدث إليه عن جواد أعرج ، على حين كان همزتون يستعد للذهاب إلى حفل الدريس ..

فلما وقعت أنظار مستر هيثكليف على هذه الحالة

— أهلا بك يا نللى ! .. لقد كنت أختنى أن أضطر للذهاب
بنفسي إلى « الجرائج » لأخذ ما أملكه .. ولكنى أراك أحضرته
إلى هنا ، اليس كذلك ؟ .. دعينا نر ما يمكن أن نصنعه به !
ثم نهض من مجلسه ، ومشى إلى الباب بخطواته الواسعة .
يتبعه جوزيف وهيرتون وقد تملكهما الفضول وحب الاستطلاع
.. فأجال لينتون المسكين عينيه المرتععتين في الوجوه الثلاثة
التي كانت تتطلع إليه ..

وبدا جوزيف قائلاً ، بعد أن تفحصه في صرامة وإيمان :
— يقينا أنه بادلك أيها السيد ، وأرسل لك ابنه هو !
أما هيكليف فقد ظل يحددج ابنه بنظرات مقترسة حتى
أصابته الغلام نوبة من الاضطراب والارتباك ، وعندئذ أطلق
ضحكة ساخرة عالية وهتف يقول :

— يا شاء الله ! .. ما أبهى هذا الجمال وما أروع ! ..
وما أحلاه من « شيء » ساحر فتان ! .. أزيهم كانوا
يطعمونه القواقع واللبن الرائب يا نللى ! .. آه ! .. ليحقق
الشيطان روى ! .. ولكن ذلك أسوأ مما توقعت بكثير ..
ويعلم الشيطان أنني لم أكن مفرقا في الأمل والخيال !

فطلبت إلى الطفل الحائر المرتعد أن يترجل عن مفرجه . وأن
يدخل البيت .. ولم يكن المنكود قد غيم تماما ما بعينه حينئذ
أبيه ، أو هل كان هو المقصود به ثم غيره .. والواقع أنه لم
يكن واثقا بعد أن ذلك الغريب المتجهم الذي يفيض لسانه
بالسخرية اللاذعة هو أبوه .. ولكنه تعلق بى وقد ازدادت

رعده وارتعاشه .. غلما جلس مستر هيكليف وصاح به :
« تعال هنا » أختى وجيهه في ذراعى وانخرط في البكاء ..
ثم همد هيكليف يده وجذبه حتى أوقفه بين ركبتيه . ثم
أمسك بذقنه ورفع رأسه عاليا وهو يقول :

— صه .. صه ! .. دعك من هذا الهراء .. إننا لن نؤذيك
يا لينتون .. اليس هذا اسمك ؟ .. انك ابن أمك بأكمله !
.. فاقن نصيبي نيك أيها الكنكوت البكاء !

ونزع غلنسة الغلام . ودفع إلى الخلف غداثه الشقراء
الكنيفة . وراح يتدسس ذراعيه النحيلتين وأصابعه الصغيره
.. وكف لينتون عن البكاء أثناء هذا الفحص الدقيق ، ورفع
عينيه الواسعتين الزرقاوين بفحص بيها فاحصه !

وبعد أن اقتنع هيكليف بأن أطراف الصبي كانت جميعا
سواء في الرخاوة والضعف ، سأل قائلاً :

— هل تعرفتى ؟

فأجاب لينتون وفي عينيه نظرة خوف جوفاء : كلا ..
— لعلك سمعت عنى إذن ! ..

فأجابته ثانية : كلا ..

— أقول كلا ؟ .. ما أتبع ذلك من أمك ! .. ألم توقظ نيك
تطمع مشاعر الاحترام نحو أبيك ! .. دعنى أخبرك إذن أنك
ابنى .. وأن أمك كانت فاجرة شريرة إذ تركتك جامعا عتيقا
الأب الذى أتجك ! .. والآن لا تزل ..

وجهك يحمر هكذا .. ولو أن ذلك يعد شيئا عظيما أن نرى
أن الدماء التي تجري في عروقك ليست بيضاء على الأخرى
.. وكن صيبا طيبا ، أكن لك خير الآباء ..

ثم التفت نحوي قائلا :

— وانت يا نللي .. إذا كنت متسبة فميكك أن تجلسي ..
وإلا فعودي إلى بيتك ! .. واحصيك سوف تروين كل ما تريته
وتسبمينه هنا لمصاحب « الجرائع » الثلاثة الخفر .. كما
أن هذا « الشيء » لن يستقر أو يهدأ ما دمت تحومين حوله ..
فاجبته :

— حسنا .. ولكني أرجو أن تكون رفيقا بالصبر يا ماستر
هيكليف ، وإلا فإني لن تستطيع الإبقاء عليه طويلا .. وأنت
أنه كل ما لك من قرابة في هذا المال ، بل كل ما سبب ..
يكون لك ..

فقال ضاحكا :

— لا تخشى عليه شيئا ، فسوف أكون رفيقا به عليه العرش
.. ولكن لا ينبغي لأحد غيري أن يكون رفيقا به أي مشا
عليه .. غايي غيور على احتكار عواطفه لنفسه : .. وسوف
أبدا الرفق به من الآن ! .. أذهب يا جوزيف وأحضر طعما
لأطفاله .. وانت يا هيرتون ، أيا العجل الشيطان .. إلى
إلى عملك !

فلما خرج كل منهما لشأنه ، استطرد يقول :

— نعم يا نللي .. فإن ابني هو المالك المرتب لبلانك ..
ولست أود أن يموت قبل أن أكون واثقا من أنني وارثه ! ..

ونضلا عن ذلك فإنه ابني ، وأريد أن ألتحق بلذة النصر عندما
أرى عقبى يصبح المالك الوحيد لضياهم وإهلاكهم ، وعندما
أرى ابني يستخدم أبناءهم ليحرقوا أرض آباءهم وهم فيها
أجراء يتلقون أجورهم من يده .. إن ذلك هو الاعتبار الوحيد
الذي يجعلني أطيق هذا الجرو .. إتنى احتقره لتفاهة
شخصه ، وأمته للذكريات البغيضة التي يثيرها في نفسي ..
ولكن هذا الاعتبار الذي ذكرته لك كاف كل الكفاية ، وهو
معنى في أمان ، وسيفال من الرعاية ما لا يقتل عما يضيقه سيدك
على ابنته .. لقد أعددت له حجرة في الطابق العلوي ، وفرشتها
بأثاث جميل .. كما عينت له مدرسا ، وسوف يحضر ثلاث
مرات كل أسبوع من مسافة عشرين ميلا ، ليعلمه كل ما ينبغي
أن يتعلمه .. وقد أمرت هيرتون أن يطيع أمره .. والواقع
أنني رقت كل شيء بحيث يظل محتسنا بروح السيادة والنسب
على كل من يعيش معه .. ولو أنني أشعر بالأسف العميق إذ
وجدته لا يستحق كل هذا العناء .. وإذا كنت قد تربيت
شيئا من السعادة في هذه الدنيا ، فيؤ أن أجد ابني شيئا
ذا قيمة خليقا بالإعجاب والتقدير والزهو .. وها أنذا أجد
الخيبة المريعة والفشل الذريع مع هذا التعس الكالغ الوجه
الذي لا يكف عن الأثين والنواح !

وعبما كان يتحدث إلى - عاد جوزيف يحمل طبقا من
عصيدة اللبن - وضعه أمام ليتون الذي ظل يتعلم أمام
الطعام التقليدي للمنزل - وينظر إليه شزرا ، ثم يقول إنه
لا يستطيع أن يأكله ! .. ورايت الخادم الشاب شاطر سرده

سخريته بالفلام على نطاق واسع ، ولو أنه كان مرغما على الاحتفاظ بشعوره فى أعماق قلبه ، لأن هيثكليف كان جادا فى ارغام أتباعه على احترام الفلام واعتباره سيدا ..

فحمل جوزيف فى وجه لينتون ، وقال وهو يخفض من صوته خشية أن نسمعه :

— لا تستطيع أن تأكله ؟ .. ولكن السيد هيرتون لم يكن يأكل شيئا سواه قط عندما كان صبيا صغيرا .. وأظن أن ما يصلح له يصلح لك تماما مثله ..

فأجابه لينتون فى لجة أمره قاسية :

— إثنى لن أكله .. خذه من هنا ..

فاختطف جوزيف الطبق فى حنى وأحضره إليهما : حيث دفع به تحت أنف هيثكليف قائلا :

— هل فى هذا الطعام شيء يعيبه ؟ ..

— ما الذى يمكن أن يعيبه ؟ ..

— لست أدري .. ولكن ذلك الصبى الرقيق الانيق يقول إنه لا يستطيع أن يأكله ! .. وأحسبه على حق ، فقد كانت أمه مثله تماما لا نستطيع طعامنا !
فأجابه السيد غافيا :

— إياك أن تفكر أمه إياي .. اذهب فأحضر له من الطعام ما يوافقته ويستطيع أن يأكله ، وماذا كنت تشاء ؟ .. أو عو طعامه المعتاد يا نللى ؟ ..



عاد جوزيف بحمل طبقا من عصيدة اللين ، وضعه أمام لينتون الذى ظل ينهلل أمام الطعام التقليدى للمنزل ..

فاقترحت أن يأتوا له بلبن ساخن أو قندج من الشاي .
وسرعان ما تلقت مديرة المنزل التعليمات اللازمة لإعداد شيء
من ذلك . . غسرت ، وقلت في نفسي أن أئتمنه أبيه سوف
تساهم في تهينة وسائل الراحة له . فإنه يرى تكوينه الضعيف
وحاجته إلى أن يعامل في رفق بالغ . . وسوف يسعزى مسر
ادجار عندما أخبره بالتحول الذي طرأ على خلق هينكلين . .

وإذ لم يعد لي عذر في التواني والبقاء أكثر من ذلك . غدت
تسللت خارجة ، بينما كان لينتون مشغولا . برد في حياء
ملاطفات أحد الكلاب . . ولكنه كان من التيقظ والإنشاء
بحيث لم يكن خداعه . . فما كدت أغلق الباب . حتى سمعته
بصيح ويردد في غزع هذه الكلمات :

— لا تتركيني ! . . لا أريد البقاء هنا ! . . لا أريد البقاء
هنا . .

وعندئذ سمعت صرير المزلاج وهو يرتفع ويهبط ليوصل
الباب ، وأدركت أنني يحولون بينه وبين الخروج . فأسرعت
أمتطى ظهر المهر ، واستحثته على العدو .

وعلى هذا النحو انتهت مدة حراستي القصيرة لليتيم
الصغير . .

الفصل الحادي والعشرون

كانت مهمتنا مع كاشي الصغيرة شاقة مؤلمة في ذلك اليوم
.. فقد استيقظت من النوم وهي تفيض مرحا وسرورا .
وتلطف إلى لقاء أبي حمتيا . . وما أن بلغت ألباء رحيله حتى
راحت تغرب الدمع المرير . وتنتحب في نشيج اليأس ، بحيث
اضطر ادجار نفسه إلى تهدئتها بالتاكيد لها بأنه سوف يعود
ثانية ، وإن كان قد احتاط غاروف قائلا : « أن استطعت إليه
سبيلا » ، ولم يكن ثمة أمل في ذلك . . وقد أفلح هذا
الوعد في تهدئة روحها قليلا . ولكن الزمن كان أعظم قدرة
وأبعد أثرا . . فعلى الرغم من أنها كانت لا تفقا ، بين الحين
والحين ، سائل أباه عن موعد عودة لينتون . فانها قبل أن
يقدر لها أن تراه مرة ثانية ، كانت ملامحه قد اختلطت في
ذاكرتها وجللتها غلالة من النسيان ، بحيث لم تعرفه عندما
راه !

وكنت كلما قابلت مديرة منزل « مرتفعات ويدرنج » عند
زيارتي لقربة « جيمرتون » لقضاء مهمة فيها ، سألتها عن حال
السيد الصغير وصحته . إذ كان يعيش في عزلة مثل كاثارين
تفسيما ، فلا يراه أحد ولا يرى أحدا . . فكانت أستشف منها أنه
ما يزال على ضعف صحته . وأنه رقيق كثير النكد والمشاكسة
.. وقد فكرت لي أنه يبدو أن مسر هينكلين يزداد له مع
الأيام كراهية ومقتا ، وإن كان يجهد في إخفاء ذلك . . غدت
كان شديد النفور من سماع صوته . . ولا يطق خوضه معه
في حجرة واحدة أكثر من بضع دقائق . .

من الحديث اكثر من كلمات معدودات .. فقد كان لينتون يستذكر دروسه ويقضى أمسياته في حجرة صغيرة بطنفون عليها اسم « اليهو » تجوزا ، أو يمضى يومه كله راقدا في غرائسه إذ لم تكن تفارقه نوبات السعال أو البرد أو الأوجاع أو الآلام من نوع ما .. وأضافت المرأة قائلة :

— وما رأيت في حياتي مخلوقا رعيديا خائر القلب . أو مغرطا في الحرص على نفسه مثل هذا الصبي .. فإنه سوف يموت حتما إذا تركت النافذة مفتوحة قلبلا عند حلول المساء .. وإذا مسته نسيمة من نسبات الليل العليلية فإنها سلاح قاتل فتاك ! .. ولا بد من أن توقد له المدفأة في أشد أيام الصيف حرا .. ودخان الطباقي في غلبون حوريف غار سام سوف يقضى عليه ! .. وهو يصير على أن تكون لديه دواما أنواع مختلفة من الحلوى والفطائر .. اما اللبن فلا يقطع عنه .. اللبن دائما أبدا .. وهو في ذلك لا يعيا البتة بما يصيبنا من برد الشتاء القارس عندما يغتال نصيبنا منه .. وترينه دائما يجلس في مقعده بجوار المدفأة ، ملتصقا بمعطفه ذي الفراء ، وإلى جانبه بعض الفطائر وتدح من الماء أو غيره من السوائل يضعه على رف المدفأة ليظل ساخنا فيرشف منه جرعة بعد أخرى .. وإذا أشفق عليه هيرتون وأتى ليسليه قليلا — وهيرتون طيب القلب ، وإن كان جافا خشنا — فإنهما سرعان ما يفترقان وأحدهما بسب ويلعن والثاني ينشج بالبكاء والنحيب ! .. وفي يقيني أن السيد كان خليقا بأن يسر كثيرا لو أن هيرتون ظل يخبره حتى يحيله جثة هامدة ، لولا أنه ابنه . وكذلك أعتقد أنه خليق بأن

يطرده لو عرف نصف ما يضيقه الصبي على نفسه من رعاية وحيطه وتدليل ! .. ولكنه قلما يتعرض لخطر الإغراء بذلك ، فإنه لا يدخل « البيو » قط . وإذا أظهر لينتون شيئا من هذه الأساليب في حجرة الجلوس حيث يقعد ، فإنه يطرده من الحجرة ويأمره بالصعود إلى الطابق العلوى على الفور ..

وقد حدثت من هذا الحديث إن حرمان عيشكاف الصنبر من العطف والحنان كلية قد جعله أناثيا سيئ الخلق حتى ولو لم يكن كذلك أصلا .. وهكذا تضاعف اهتمامي به : ولو أنني تعلمت بنوع من الأسى لصيره ، ووددت لو أنه ترك معنا .. وكان مستر ادجار يشجعنى على الحصول على المزيد من المعلومات عنه . وأحسب أنه كان يفكر فيه كثيرا ، ولا يتأخر عن المجازفة في سبيل رؤيته .. وقد طلب إلى مرة أن أسأل مدبرة المنزل إن كان يأتى إلى القرية أحيانا لا .. فعلمت منها أنه لم يذهب للقرية إلا مرتين ، رابكا جوادا ، وفي مصحبة والده .. وفي كل من المراتين كان يدعى أنه منبوك القوي ثلاثة أيام أو أربعة بعدها ..

وقد تركت تلك المرأة خدمة المنزل — إذا صدقت ذكرنى — بعد عامين من مجيئه ، وخلفتها أخرى لم أكن أعرفها : ما تزال هناك حتى الآن ..

ومرت الأيام « بالجرائج » على نهجنا السابق السهيج ، حتى بلغت من كائى السادسة عشرة من عمرها .. ولم تكن نحتنى بعيد ميلادها على الإطلاق ، لأنه كان يوافق ذكرى وفاة سيدتى الراحلة .. وكان والدها قد أتى من قبله صلاة

لا تتغير ، هي أن ينفرد بنفسه ذلك اليوم في المكتبة . ثم يسير عند الفسق إلى غناء كنيسة جيمرتون حيث يطيل زيارته لقبر زوجته حتى ينتصف الليل .. وهكذا كانت كاثرين تترك لتحتفل بعيد ميلادها بنفسها - وبوسائلها الخاصة ..

وفي العشرين من مارس من ذلك العام ، كان اليوم من أيام الربيع الجميلة المشرقة .. فما أن بدأ والدها اعتكافه حتى نزلت سيدتي الصغيرة ترتدي ثياب الخروج . قائلة إنها استأذنت إياها ليقوم بجولة عند أطراف البراري والأحراش معي ، فأذن لها مستر ليفتون بذلك ، بشرط أن تذهب إلى مسافة قريبة وأن تعود بعد ساعة ، وأرذفت كاثي صائحة :

— أسرعى إذن يا ايلين .. إلفني أعرف أين أريد الذهاب .. حيث يقيم سرب من طيور الأحراش ، أود أن أرى إن كانت قد أقامت أعشاشها بعد ..

فاجبتها :

— لا بد أن يكون ذلك على مسافة بعيدة وارتفاع عال .. فالطيور لا تمشش عند أطراف البراري ..
— كلا .. إنها ليست مسافة بعيدة ، وقد ذهبت بالقرب منها مع أبي ..

فوضعت قلنسوتي واندفعت معها إلى الخارج . دون أن أعي الأمر اهتماما أو أفكر فيه مرة ثانية .. وكانت تنفس أمامي نفستي ، ثم تعود إلى جانبي ، ثم تجري أمامي من جديد كأنها كلب صيد صغير يرافق صاحبه .. ولقد تهلكتني

— في يادي الأمر — نشوة من الطرب عندما سمعت أصوات القتاير وهي تصدح من قرب ومن بعد ، واستمتعت بأشعة الشمس الدائلة اللذيذة ، وعندما رحت أرقب طفلي الدللة ويهيجني الغالية ، بقذائرها الذهبية السابحة في الهواء خلفها ، ووجنتها المنوردتين المتالتتين . كأنهما في نعومتها وصفاها ونضارتها وودتان يرتان متفتحتان ، وهينبها اللتين تشعان بهاء ومرحا ولا تظللها سحب المتاعب والأحزان .. كانت في تلك الأيام مخلوقة سعيدة . وملاكا طامرا .. وليتها استطاعت ، وقتئذ ، أن تنزع بما كانت فيه !

وما لبثت أن قلت :

— حسنا .. ابن طيورك البرية يا مس كاثي ! .. كان ينبغي أن نكون عندها الآن . نقد بعدنا عن بساتين " الجرائع " كثيرا ..

وكانت تجيبني باستمرار :

— آه ! .. إنها غير بعيدة من هنا .. هي على بعد قليل يا ايلين .. تسلقى تلك الرابضة ، وأعبري ذلك الجسر ، وما أن تصلى إلى الجانب الآخر حتى تجديني عند الطيور !

وكم من رابية تسلقتها وكم من جسر عبرته ، حتى بدأت أخيرا أحس بالتعب والإعياء ، فقلت لها إننا يجب أن نتوقف ونعود أدراجنا .. وكانت قد سبقني بمسافة طويلة ، فطفت أصيح منادية إياها ، ولكني لم تسمعني ، أو لم تكثر لندائي ، إذ ظلت تنفخ هنا وهناك ..

إلى تعقبها .. وأخيرا اختفت عن ناظري داخل تجويف بين التلال ، وقيل أن أراها ثانية كانت أقرب إلى « مرتفعات ويلدنج » بميلين عنها إلى منزلها .. وتبينت شخصين يمسكان بها ، كان أحدهما - فيها اعتقدت - مستر هيثكليف نفسه .. كانت كاثي قد ضبعت متلبسة بسرقة الطيور ، أو على الأقل بالعبث في أعشاشها - فإن المرتفعات كانت ضمن أملاك هيثكليف ، وكان من حقّه أن يعاقب من يسلم على عليا .. فلما بلغت مكانهم ، وأنا أجر قدمي المكودبين ، رأيت ترغيع يديها مؤكدة ما تنطق به ، وهي تقول :

— إنني لم آخذ شيئا ، ولم أجد شيئا .. ولم يكن في نيتي أن آخذها لو وجدتتها .. ولكن أبى أخيرتي بوجود الكثير منها هنا فوق التلال ، فوددت أن أرى البيض ..

فرمقني هيثكليف بأنظاره وهو يتنسم ابتسامة شريفة ثم عن معرفته من تكون القناة ، وبالنسبة عن نوايا الخبيثة نحوها ، ثم سأل عمن عساه يكون « أبوها » .. فاجابته :

— إنه مستر لينتون صاحب « ترشكرويس جرانج » .. وقد أدركت أنك لم تعرفني وإلا ما خاطبتني بهذه اللجة ! فقال في سخرية :

— أتحسبن إذن أن أباك عالى القدر رفيع المكانة مؤثر الاحترام ..

فراحت كاثرين تحديق فيه بأنظارها في دهشة واستغراب ، ثائلة :

— ومن تكون أنت ؟ .. ثم إنني رأيت هذا الرجل من قبل ، فهل هو ابنك ؟ ..

وأشارت إلى هيرتون ، الذى كان ثانى الاثنين .. والذى لم يكن قد اكتسب إلا زيادة في الحجم والقوة فضلا عن عامين من عمره ، وإن كان يبدو على ما عهدته فيه من خشونة وجلافة ..

فأسرعت أقاطعيها ثائلة :

— سوف يطول غيابنا ثلاث ساعات يا ميس كاثي ، لا ساعة واحدة .. ولا بد لنا حقا من العودة إلى المنزل الآن ..

فاجابها هيثكليف وهو يربحنى جانبا :

— كلا .. إن هذا الرجل ليس ابني .. ولكن لى ابننا رأيتك أنت من قبل أيضا .. ومع أن مربيتك في عجلة ، إلا أنني أرى من الخير لك ولها أن توثاها قليلا .. فهل لك أن تدورى حول هذه الدغلة ، وتسيرى إلى منزلي ؟ .. إنكما إذا ارتحما قليلا فستعودان إلى داركما في وقت مبكر عما تفعلان لو سرتما الآن .. ثم إنك سوف تلقين منا كل ترحاب ..

فهمست إلى كاثرين أنه لا ينبغي إطلاقا أن تلبى هذه الدعوة ، وأن تثق في كلامي بأن هذه الزيارة أمر لا يمكن حدوثه ، فإذا بها تسألني بصوت عال :

— لماذا ؟ .. لقد تعبت من الجرى ، والعشب هنا ندى لا أستطيع الجلوس فوقه ، قدعينا نذهب يا ايلين .. ثم إنه يقول إنني رأيت ابنه .. ولكنى أحسبه مخطئا في ظنسه .. وفى وسعى أن أحدس أين يقيم .. فى ذلك التل الذى

الذي زرته أثناء عودتي من « صخور يستون » ذلك اليوم .. المستقيم هناك ؟ ..

هناجيب هينكليف :

— بلى .. وانت يا نللى ، امسكى لسانك . فإن زيارتيما لنا سوف تكون مبعث سرور لها .. تقدم آمأنا يا هيرتون مع الانسة ، اما انت يا نللى فسوف تسيرين معي ..

فصحت : وقد اخذت أحاول التماس من قبضته على ذراعى :

— كلا .. إنها لن تذهب إلى مثل هذا المكان !

ولكنها كانت وقتئذ توشك أن تصل إلى الدرج الخارجى للمنزل ، بعد أن راحت تركض بأقصى سرعتها حول أذغال الأحرأش .. ولكن المعين لمرافقتها لم يستمر في مهمته ، فقد أسرع بالابتعاد عند جانب الطريق واختفى عن الأنظار ..

فاستطردت قائلة :

— إن ما تفعله يا مستر هينكليف خطأ بالغ الخطورة .. فأنت تعرف أنك لا تضم خيرا .. سوف ترى الفتاة لينتون ، وسوف تعود لترى كل شيء لأبيها بمجرد وصولنا ، وبذلك ينصب اللوم كله فوق رأسى ..

— إننى أريدها على أن ترى لينتون ، فإنه يسدو أحسن حالا هذه الأيام « وهو قلما يكون في حالة تصلح لأن يراه أحد .. وسوف نفتعها الآن بأن تبقى أمر هذه الزيارة في طى الكتمان .. فأين الضرر في ذلك ؟ ..

— الضرر في ذلك هو أن والدها سوف يحق على إذا تبين أننى سمحت لها بدخول منزلك .. كما أننى مقتنعة تماما بأن لك غرضا خبيثا في تشجيعها على ذلك .

— بل إن غرضى شريف على قدر المستطاع ، وسأخبرك بكل تفاصيله في صراحة .. غنا أريد أن تتوثق الصلة بين ابن العمه وبينت الخال . وأن يتحابا ثم يربط الزواج بينهما .. وإبنى في ذلك أسدى يدا كريمة إلى سيدك نفسه .. فإن ابنته الصغيرة لا أمل لها ولا مستقبل في وراثته ، فإذا عملت بما يطابق رغباتى فإن ذلك يكسبها الحق في مشاركة لينتون ميراث خاله .

— إذا مات لينتون — وهو أمر قريب الاحتمال لأن حياته غير مضمونة — فإن كائرين ستكون الوارثة .

— كلا .. إنها لن تكون الوارثة .. غليس في الوصية نص يضمن لها ذلك .. وإنها سوف تنتقل إملأكه إلى .. ولكني نضع حدا لهذا الجدال العقيم ، أقول لك إننى أريد أن يتزوجا وقد استقر عزمى على تنفيذ إرادتى ..

فقلت له حائقة :

— أما أنا فغد استقر عزمى على ألا تقرب كائى منزلك معى مرة أخرى ..

فأمرنى بأن أزم الحبت ، إذ كنا قد وصلنا إلى البوابة حيث وقفت مس كائى في انتظارنا .. ثم سبقنا في الأمر ليفتح لنا باب المنزل .. وكانت سيدنى الصغيرة لا تفقا ترمقه بالنظرة تلو النظرة ، كأنها لا تستطيع أن تستقر على رأى قاطع في حقيقة أمره .. وكان قلما التفت عنها بعيدا ،

ابقسم في وجهها ، وكلما تحدث إليها رقق من صوته في خطابها .. وقد بلغت بى البلاهة أن تصورت أن ذكرى أميا قد تلين قلبه وتحول دون رغبته في إيذائها ..

وكان لينتون يقف بجوار المدفأة ، وقد عاد من نزهته بين الحقول ، إذ كان لا يزال مرتديا قمبته وكان يطلب إلى جوزيف أن يأتيه بعذاء جاف .. وكان قد ازداد طولاً بالنسبة لسنه . فما زالت تنقصه بضعة أشهر ليلبلغ السادسة عشرة .. أما بلامحه فقد احتفظت بجمالها ، وازدادت عينا نالفاً وبشرته توردا عما أذكره عنها .. ولو أنه كان نالفاً وفقياً اكتسبه من الهواء العليل والشمس الساطعة ..

وتحول مستر هيكليف نحو كاثي ، سائلاً :

— من هذا ؟ .. هل تعرفينه ؟ ..

فراحت تنقل أنظارها بين الواحد والآخر في تشكيك . قبل أن تجيب :

— أهو ابنك ؟ ..

— نعم .. نعم ولكن هل هذه أول مرة تريه فيها ؟ .. فكري قليلاً .. آه ! .. إن ذاكرتك ضعيفة خائرة .. وأنت .. ألا تذكر ابنة خالك التي اعتدت أن « تهوسنا » برغبتك في رؤيتها يا لينتون ؟ ..

فما أن سمعت الاسم حتى اضطربت بالفرحة الطاغية والدهشة البالغة وصاحت قائلة :

— ماذا ؟ .. لينتون ؟ .. أهذا لينتون الصغير ؟ .. ولكنه يفوقنى طولاً الآن ! .. هل أنت لينتون حقاً ؟ ..

فتقدم الفتى نحوها مؤكداً أنه بعينه .. فراحت تقبله في حرارة بينما كانا يتبادلان نظرات العجب مما أحدثه الزمن من تغيير في مظهر كل منهما .. كانت كاثارين غسد بلغت غاية طولها ، وغسدت ملفوفة العود في غير بدانة ، رخصة البدن في قوة غولاذية ، تشبع بالصحة والحيوية الدافقة .. أما لينتون فكانت نظراته وحركاته واهنة ضعيفة ، وجهه مغرط النحول ، ولكن كان في مسلكه ومظهره رشاقة تطف من هذه العيوب ، وتجعله يبدو مقبولاً .

وبعد أن فرغت من تبادل آيات الود العديدة مع ابن عمها ، مضت نحو مستر هيكليف الذي كان يقف بجانب الباب ، مقسماً انتباهه بين داخل البيت وخارجه ، مظهراً بالنظر إلى الخارج وهو في الحقيقة يرقب من في الداخل فحسب .. فهبت على أطراف أصابعها لتقبله وهي تهتف قائلة :

— أنك زوج عمى إذن ؟ .. والله لقد أحبيتك ، برغم عبوسك وتقلبك في بادئ الأمر ! .. ولكن لماذا لا تحضر لزيارة « الجرائع » مع لينتون ؟ .. اليس من العجيب أن نكون جيراناً متلاصقين كل هذه السنين ثم لا تزورنا قط ؟ .. لماذا بالله فعلت ذلك ؟ ..

فأجاب :

— لقد زرت « الجرائع » مرة أو مرتين ، أكثر مما ينبغي ، قبل مولدك .. ولكن رويدك .. يا للعة ! .. إذا كان لديك الكثير من القبلات ، فوغريها وانحيها للينتون .. فإنك تضيعينها عبثاً فوق وجهي !

وتركته كاثرين ، وطارت إلى لتهاجتي بقبلايتها السريعة
وهي تصيح :

— وأنت يا ايلين .. أيتها الخبيثة الشريرة ! .. كم جاهدت
في منعي من الدخول ! .. ولكني سوف أسير إلى هنا كل
صباح في المستقبل .. هل تسمح لي بذلك يا عماد ؟ .. وهل
أحضر أبي معي أحيانا ؟ .. هلا يسرك أن ترائنا ؟ ..

فاجاب « العم » وهو لا يكاد يستطيع إخفاء القلوب
الذي علا وجهه ، والنتائج من نفوره من كلا الزائرين :

— آه .. طبعاً .. طبعاً ..

وما لبث أن واجه السيدة الشابة ، مستطردا :

— ولكن مهلاً .. لقد فكرت في الأمر .. ووجدت من الخير
أن أخبرك بالحقيقة .. فإن مسنر لينتون ناظم على .. إذ
تشاجرتنا مرة في حياتنا ، في ضراوة وقسوة .. ولو ذكرت
له شيئا من قدمك إلى هنا فسوف يعترض بشدة على
زياراتك لنا .. ولذلك أرى أنه لا يجب أن تخبريه بهذه
الزيارة ، إلا إذا كنت قليلة الحرص على رؤية ابن عمك في
المستقبل .. إن لك أن تحضري كلها شئت ، ولكن لا تذكرى
له ذلك ..

فسأله في استخذاء : ولماذا تشاجرتما ؟ ..

— كان يرى أنني من الفقر بحيث لا أصلح زوجا كثوا
لاخته .. ثم حزن لفوزي بها ، واعتبر ذلك إهانة لكبريائه ،
لا يمكن أن يغفرها لي البتة ..

فقالت الفتاة :

— هذا خطأ منه .. وسوف أخبره بذلك يوما من الأيام ..
ولكني ولينتون لا شأن لنا ولا دخل بمنازعاتكما .. وما دمت
لن أحضر إلى هنا ثانية .. فعليه أن يأتي إلى « الجرائنج » ..
نفغهم ابن عمنا :

— إن المسافة بعيدة لا أستطيع سيرها .. وسوف يقتلني
المشي أربعة أميال حتيا .. كلا .. تعالى أنت إلى هنا يا مس
كاثرين ، بين آن وآخر .. لا كل صباح كما قلت ، بل مرة
أو اثنتين كل اسبوع !

غصوب هينكليف نحو ابنه نظرة غيظ بالمرارة والازدراء ،
وهيمس يقول لي :

— أقلب ظني ، يا ايلين ، أن جهودي سوف تذهب هباء ..
فإن « مس كاثرين » ، كما يدعوها هذا الغلام التافه ، سوف
تظن سريعا إلى حقيقة قيمته ، فطرحه وراء ظهرها ، أو
تبعث به إلى الشيطان ! .. آه لو كان هيرتون محله ! ..
أعلمين أنني كثيرا ما اشتغيت لو كان هيرتون ابني برغم ما هو
فيه من ضعة الآن .. لقد كنت خليقا بأن أحب الفتى لو لم
يكن ابن هندلي ! .. ولكني أحسبه بمنجاة من حبسها ! ..
وسوف أضع به لمناسبة هذا المخلوق الحقير ، إلا إذا نفى
هذا عن نفسه خموله .. والواقع أننا لا نقدر أنه سوف
يمش حتى يبلغ الثامنة عشرة .. آه .. لعنة الله على هذا
المخلوق التافه البزبل ! .. إنه منهمك في تجفيف قميصه ،
ولا يلتفت إلينا بالا أو اهتماما ! .. لينتون ! ..

فأجاب الصبي : نعم يا ابتاه ..

— اليس لديك ما تصحب ابنة خالك لرؤيته خارج الدار ؟
.. ولو بعض الأرناب أو أعشاشى ابن عرسى ؟ ! .. خذها
يا بنى إلى الحديقة ، قبل أن تستبدل خذائك ، واصحبها إلى
الاسطبل لتربها جوادك ..

فتبتم لينتسبون مخاطباً كاشى فى نبرات نغم عن نفوره من
التحرك من مكانه :

— ألا تفضلين الجلوس هنا ؟ ..

تطلعت الفتاة نحو الباب فى نظرات متشوقة ، وبعداً
عليها التلطف إلى الحركة والنشاط ، ثم أجابت فى استحياء :
— لست ادرى حقاً !

وظل تابعا فى مقعده لا يفارقه ، بل لقد ازداد انكماشاً
والنصاعة بالدقاة .. وعندئذ نهض هينكليف ومضى إلى المطبخ
فاجتازه إلى الفناء ، وبسمعناه ينادى هيرتون ، وبسمعنا
هيرتون يلبى النداء ، وما لبث الاثنان ان دخلا إلى الحجرة ..
وكان الشاب يفتسل كما بدا فى توهج وجنتيه وشعره
الندى ..

فلما رآته بس كاشى فكرت ما سمعته من مدبرة المنزل ذات
يوم ، فصاحت قائلة :

— آه ! .. دعنى اوجه إليك سؤالاً يا عماء .. اهذا ابن
خالى حقاً ؟ ..

— نعم .. إنه ابن خالك .. أفلا تحبينه ؟ ..

فبغت الحيرة فى أسارير كاثرين ، فاستطرد قائلاً :

— ألا تجدينه شاباً لطيفاً ؟ ..

فوقفت الفتاة الشقية على اطراف أصابعها وهيمت فى
أذن هينكليف بكلمات انطلق على اثرها مقهقها .. فاريد وجه
هيرتون ويان عليه الحرج ، فأدركت أنه شديد الحساسية
لكل ما يتم عن الاستهانة بأمره ، وأن لديه فكرة مبهمة عن
ضالة شأنه بالنسبة لهم .. ولكن سيده ، أو حاميه ، يدد
عبوسه بأن قال موضحاً :

— سوف تكون المفضل لديها ببناً يا هيرتون ، فبى تقول
إنك .. ترى ماذا قالت ؟ .. حسنا .. إنه شئ شديداً
الاطراء لك .. فاذهب معها ، وطف بها أنحاء المزرعة ، واسلك
سبيل السيد المهذب ، فلا تطلق أمامها بكلمات غير لائقة ،
ولا تحلق فى وجه الانسة عندما تكون غير منتبهة إليك ،
وأغضض من بصرك عندما تنظر إليك .. وإذا تحدثت
إليها فانطق بكلماتك فى بطاء ووضوح ، ولا تضع يديك فى
جيوبك .. هيا .. اذهب معها الآن ، وكن معها مضيئاً رقيقاً
على قدر ما تستطيع من لطف ورقة !

ثم أخذ يرقبها وهما يمران أمام النافذة ، فإذا هيرتون
ايرنشو قد أشاح بوجهه تماماً عن رفيقته ، وقد بدا كأنهما
يدرس المناظر الممتدة أمامه ، والمألوفة لديه ، فى اهتمام
شخص غريب يراها للمرة الأولى ، أو استغراق غنان يرتى
فيها ما يشوقه ..

وراحت كاترين ترمقه من طرف خفى ، في نظرات تنم عن الإعجاب به إلى حد ما ، ثم ما لبثت أن انصرفت عنه إلى البحث عن الأشياء التي تثير فضولها وتسليتها . وهي تتوابع من مكان لآخر ، وتترنم ببعض الألحان تعويضا لها عما يعجزها من حديث بسبب صمت رفيقها ..

ومضى هيثكليف يقول لى :

— لقد رمطت لسانه ، فلا يجرؤ على النطق بكلمة واحدة .. هل تذكريننى يا نللى عندما كنت فى مثل ..
بل أصغر منه ببضع سنين .. وهل ظهرت قط بمثل هذا الغباء ، أو هذا « التقلع » كما يسميه جوزيف ..

— بل أسوأ منه .. لأنك كنت أكثر تجيها وعموسا :

فتابع كلامه « كأنها يحدث نفسه ، أو ينطق بما يجول بخاطره :

— إننى أجد فيه ما يسرنى ويشغى غليلي . ويرضى كل ما علقته عليه من آمال ! .. ولو أنه ولد أبله أو أمتهو لها شعرت بنصف ما استمتع به الآن من سرور ورض .. ولكنه ليس معنوها .. وفى وسعنى أن أرئى لكل ما يخالجه من مشاعر وأحاسيس ، لأننى أنا نفسى عانيتا يوما من الأيام .. وإنى أعلم كل ما يكابده الآن تماما .. ولكنى مع ذلك .. مجرد بداية لما سوف يكابده ويعانيه فيما بعد .. ولن يكون فى قدرته قط أن ينتشل نفسه من أعماق الجباله والجلالة التى تردى فيها .. فقد استطعت أن أظفر به بأسرع مما



وراحت كاترين ترمقه من طرف خفى ، في نظرات تنم عن الإعجاب به إلى حد ما ، ثم ما لبثت أن انصرفت عنه إلى

ظفر بى والده الوغد ، وأن أرمى به إلى أحط مما رماني ..
 فإنه يتيه فخرا بجلافته وفظاظته .. وقد علمته كيف سخر
 ويزدري كل ما ليس حيوانيا ، وأن يعدد سخفا وضعفا ..
 أفلا نظنين أن هندلى كان يمكن أن يفخر كثيرا بابنه ، لو أتبع له
 أن يراه الآن ؟ .. ألا يفخر بابنه مثلما افخر أنا بابنى هذا ؟
 .. ولكن هناك فرقا شاسعا بينهما .. فاحدهما ذهب خالص
 ولكنه يستخدم كبعض حجارة الطريق .. والثانى صفيح
 رخيص ولكنه يصلح ليحاكى آتية من الفضة ! .. أن انر
 خلو من أى شيء ذى قيمة ، ومع ذلك فائى استحق الثناء
 إذ أجعله يمضى إلى أبعد ما يمكن لأشياء ثامنه مثله أن يبلغه ..
 أما ابنه هو فإن له ميزات وصفات من الطراز الأول ، ولكنها
 ضائعة .. وقد تبرت وظهرت في التراب حتى عدت أسوا
 من مدبها .. فانا ليس لدى ما أسف عليه .. أما هو فإنه
 خليق بأن يكون اشد أسفا واسى من أى إنسان عرفته ..
 واحسن ما فى الأمر أن هيرتون مولع بى ولعا شديدا .. ولعلك
 تعرفين باننى فى ذلك قد بززت هندلى وتوقعت عليه ..
 فلو أن الوغد الميت استطاع أن يقوم من قبره ويأتى ليناقتشنى
 الحساب على ما فعلته بولده ، لأتلج صدرى برؤية ذلك الولد
 نفسه يهاجمه حتى يرده إلى قبره ، وقد أحنته أنه جرؤ على
 الاعتداء على الصديق الأوحى الذي له فى هذه الدنيا !

وأطلق هيكليف ضحكة شيطانية إعجابيا بهذه الفكرة ! ..
 ولم أحر جوابا ، لأننى رأيت أنه لم يكن ينتظر الجواب ..
 وفى الوقت نفسه كان رفيقنا الصغير - الذى كان يجلس
 بعيدا عنا بحيث لم يسمع ما قاله أبوه - قد بدأ يتامل فى
 مقعده ويظهر علامات القلق .. ولعل ذلك كان ندما منه
 إذ حرم نفسه من متعة اصطحاب كاثرين خشية أن يناله
 بعض التعب .. ولاحظ أبوه نظراته القلقة الهائمة من خلال
 النافذة ، ويده المتردة وهى تمتد نحو قبعته وترتد عنها ،
 فصاح به فى حرارة مصطنعة :

— تم أيها الولد الكسول ، والحق بهما .. إنها الآن عند
 ركن المنزل ، بجوار خلايا النحل !

فاستجمع ليعتدون همته الخائرة ، وغادر مكانه بجوار المدفأة
 .. وكان الباب مفتوحا ، وفيها كان يجتازه إلى الخارج
 سمعت صوت كاثرين تسأل رفيقها المستوحش عن تلك
 الكتابة المنقوشة فوق الباب .. فراح هيرتون يحلق بانظاره
 إلى الفتوش ، وهو يحك رأسه فى بلاهة تفوق بلاهة مهرجى
 الملاعب .. وما لبث أن أجاب :

— إنها كتابة لعينة ، ولا أستطيع قراءتها !

فصاحت كاثرين :

— لا تستطيع أن تقرأها ؟ .. إنني أقرأها بسهولة ، فيها
كتابة إنجليزية .. ولكني أريد أن أعرف سبب وجودها فوق
الباب .

وعندئذ تفقه لينتون طريا . وكان ذلك أول مظهر يديه
من مظاهر السرور والانشراح ، ثم قال لابنة خاله :

— إنه لا يعرف الحروف الأبجدية ! .. غيل يمكنك أن
تصدق وجود مثل هذا الجبل الفاحش ؟ ..

فسألته من كائن في جد واهتمام :

— هل هو شخص طبيعي مكتمل العقل كما ينبغي أن
يكون ؟ .. أم أنه غر ساذج به شذوذ ؟ .. لقد التفت عليه
سؤالين منذ قليل فكان يبدو في كل مرة من الغباء بحيث
حسبته لا يفهمي .. أما أنا فاني لا أستطيع فهمه حقا !

فانبعث لينتون يضحك من جديد . وهو يرمق حيرتوں
بنظرات الشكامة والتشفي ، وكان من المؤكد أن الفتى في تلك
اللحظة لم يكن يبدو مجردا من ملكة الفهم ..

ومضى لينتون يقول :

— ليس به من شيء سوى البلادة والكسل . ليس كذلك
يا إيرنشو ؟ .. ان ابنة الخال تحسبك ابله أو غيبا . وهكذا

تلقى عواقب سخرتك بما تسميه : « تعليم الكتب » .. ثم
هنا لاحظت يا كثيرين طريقة نطقه المروعة ، على غرار العوام
من أهل يوركشاير ؟ ..

فزمجر هيرتون قائلا ، وهو أسرع بديهة في إجابة رفيقه
الدائم :

— وما الفائدة منها بحق الشيطان ؟ ..

وكان يهم بالمضي في زمجرته شأوا بعيدا ، لولا أن الشابين
أصابتهما نوبة من المرح الصاخب ، فانبجسوا في قهقهة
متواصلة ، وقد طربت أنستى الطائشة إذ تبينت أنها تستطيع
أن تجعل من لهجته الغريبة الريفية موزعا للمرح والتسلية .

وقال لينتون وهو يضحك ضحكة ناعمة خبيثة :

— وما فائدة « الشيطان » في هذه العبارة ؟ .. لقد أهرق
أبى بالا فتوه بأية كلمات غير لائقة ، وما أنت لا تستطيع أن
تفتح فمك دون أن تلوذ واحدة منها ! .. هيا .. حاول أن
تسلك مسلك السادة المهذبين ..

فصاح الشاب الريفي حائقا :

— لو لم تكن أقرب إلى الفتاة منك إلى الفتى لقصيت عليك
في النوا واللحظة ، أيها المخلوق التافه العزيب !

ثم أسرع بالابتعاد عنهما وقد اشتعل وجهه بنير ان الغضب والمذلة معا ، فقد كان يشعر بعمق الإهانة التي أصابته .
وبعجزه عن الأخذ بثأره ..

وكان مستر هيكليف قد سمع هذا الحوار ، كما سمعته .
فابتسم مغتبطا إذ رآه ينصرف عفتها ، ولكنه أعقب ذلك
بنظرة غريبة تفيض بالنفور والكراهية « حذج بها ابته ورغيفته
الثرثارين ، اللذين مضيا في حديثهما عند مدخل البيت .
وقد وجد الفتى ما ينعشه ويشير حيويته في الحديث عن أخطاء
هيرتون ونقائمه ، ورواية الأفاضل عن تصرفاته ، كما
استطابت الفتاة أقواله البذيئة الحقود دون أن تنقب إلى ما تنم
عليه من سوء الطوية .. ومندند بدأت أكره لينتون ، أكثر
مما كنت أرشئ له ، وعذرت أباه في احتقاره واستصغار
شأنه ..

ومكثنا هناك حتى العصر ، إذ لم يمكني أن افتزع مس
كاثي قبل ذلك .. ولكن من حسن الحظ أن سيدي لم يكن
قد غادر حجرته ، فظل جاهلا غيبقتنا الطويلة .. وكنت
أتلطف على اطلاع الأنسة الشابة على حقيقة أخلاق الناس
الذين غادرنا بيتهم ، ولكنها كانت قد وضعت في رأسها أنني
بمتاحلة عليهم ، فصاحت قائلة :

— آه ! .. أنك تنحازين إلى جانب أبي يا ايلين .. ولقد

تبينت الآن مقدار تحيزك ، وإلا لما خدعتني كل هذه السنين
بزعك لي أن لينتون يقيم في مكان بعيد جدا .. إتنى شديدة
الغضب منك حقا ، غير أن سروري اليوم يطغى على غضبي
غبحول دون انفجاره ! .. ولكن عليك أن تمسكي لسناك عن
زوج عتي ! .. إنه عبي ! .. فاذكري ذلك جيدا وحذار أن
تسيه ! .. أما أبي فسوف اعاتبه على شجاره معي !

وانطلقت في الحديث على هذه النغمة حتى اضطرت إلى
التخطي عن كل محاولة لإقناعها بخطئها .. ولم تذكر شيئا
عن الزيارة في تلك الليلة ، لا شيء إلا لأنها لم تر مستر
لينتون .. ولكن في اليوم التالي افترض السر كله ، لفسرط
كربي وعي !

ومع ذلك قرب ضارة نافعة ! .. فلم يكن الأمر من السوء
كما تصورت .. إذ فكرت في أن مستر لينتون أقدر مني على
حمل مسئولية التوجيه والتحذير ، وأقوى مني تأثيرا عليها
.. غير أنه كان كثير التردد والتعيب في إقناعها بالأسباب
القوية التي تبرر رغبته في قطع كل صلة لها بأهل « مرتفعات
ويدرنج » ، كما كانت كاثارين لا تقنعها سوى المبررات القوية
لكل قيد يفرض على حريتها أو يحذر من رغباتها المذلة !

فما كادت تحييه نحية الصباح ، في اليوم التالي ، حتى
هتفت قائلة :

— هل بوسك ، يا ابتاه ، أن تحدث من رايته بالأمس في زهتي بين الأحراش ؟ .. أراك جفنت يا أبي ! .. وقد خائفك الحذر الآن ، أليس كذلك ؟ .. حسنا ، لقد رايت .. ولكن أصغ إلى وسوف تسمع مني كيف كشفت أمرك ، وأمر ايلين — حليفك — التي كانت ، مع ذلك ، تظاهر بالاشتغال علي ، عندما كنت أعزل النفس بالأمل ويستبد بي القلق نحو عودة لينتون إلينا ثانية !

ثم مضت تروي القصة الأمانة الكاملة لرحلتها وما أنشبت إليه .. أما السيد ، فعلى الرغم من أنه كان يرمقني بتفكرات التائب أكثر من مرة ، إلا أنه لم يقل شيئا حتى غرغرت من قصتها ، وعندئذ جذبها إليه وسألها إن كانت تعرف لماذا أخفى عنها وجود لينتون في جوارنا القريب ؟ .. وإن كانت تظن ذلك لمجرد أنه يابى عليها متعة بريئة لا ضرر ولا حرج من استمتاعها بها ؟ .. فأجابته :

— لقد كان ذلك لأنك تكره مستر هيكليف ..

— إذن فأنت تعتقدين أنني من الأثانية بحيث أهتم بمشاعري أكثر من اهتمامي بمشاعرك يا كاثي ؟ .. كلا .. لم يكن ذلك لأنني أكره مستر هيكليف .. بل لأن مستر هيكليف هو الذي يكرهني ، ولأنه أقرب الناس إلى الإبالة والشياطين ، يجد لذته في الإساءة إلى من يبغضهم وتدميرهم

تدميرا عند أول غرصة يتيحونها له .. وكنت أعرف أنه ما من سبيل أمامك إلى توثيق عرى الود مع ابن عمك دون أن تتصلى به وتلقيه .. وكنت أعرف كذلك أنه سوف يبغضك لأنك ابنتي .. وهكذا اتخذت وسائل الحيلة حتى لا ترى لينتون ثانية ، لمصلحتك أنت ، لا لاي سبب آخر .. وكان في فمي أن أشرح الأمر كله يوما من الأيام عندما تكبرين ، ويؤسفني أنني توانيت في ذلك ..

فأقلت كاثرين ، وهي لا تبدو مقنعة تماما :

— ولكن مستر هيكليف كان ودودا في ترحيبيه بي يا ابتاه ! .. ولم يبد أي اعتراض على لقاء أحدهما بالآخر أو رؤيته له .. بل قال إن بوسمي الحضور إلى منزله كلما طاب لي ، على ألا أخبرك بذلك ، لأنك كنت قد تشاجرت معه ، ولن تغفر له زواجه من عمتي ايزابيلا .. أما أنت فلا تسمح لي بذلك .. فأنت وحدك الملوم الآن يا أبي ! .. إنه ، على الأقل ، راض عن توظيف صداقتنا ، أنا ولينتون .. أما أنت فتقف في سبيلها !

وإذ رأى السيد أنها لا تريد أن تصدق ما يتصف به زوج عمته من خلق شرير ، راح يروي لها في إيجاز مسلكه مع ايزابيلا ، ووسائل الفدر التي تملك بها « مرقعات ويزرنج » ! ولم يكن يطبق المضي في هذا الحديث طويلا ، لأنه على الرغم

تقبلت كاثرين اباهما ، وعكفت على دروسها في هدوء زهاء ساعتين كعادتها ، ثم صحبته في جولة بين الحقول . . ومضى اليوم كله كما تمضى سائر الايام . . غير اننى عندها أوت إلى حيرتها في المساء ، ولحقت بها لاساعدها في إيدال ثيابها ، وجدها راكعة بجوار الفرائس وقد انخرطت في البكاء . .

فتمعجبت من ذلك ، وهتفت بها قائلة :

— واه لك من طفلة بلهاء ! . . لو أنك دقت شيئا من الأحزان الحقيقية ، لخلجت من إراقة دمعاة واحدة سدى لمثل هذه المعارضة القافهة لرغباتك ! . . فاحدى الله يا مس كاثرين ، على أن حياتك خلو من أى حزن جوهرى ، او ظل لمثل هذا الحزن . . وفكرى لحظة لو أن السيد ، وانا ، قضينا نجنا ، ووجدت نفسك جيدة فى هذا العالم ، فكيف يكون شعورك عندئذ ؟ . . قارنى بين ظروفك الحالية ومثل هذا المصاب الجلل ، واحدى الله على ما أولاك من اصدقاء يحبون لك الخير ويسهرون على سعادتك ، بدلا من إراقة عبراتك فى اشتباء المزيد من الاصدقاء !

فاجابت :

— إننى لا أبكى من أجل نفسى يا ايلين ، وانما من أجله هو

من قلة ما ذكره عنه ، إلا أنه كان يحس نحو عدوه القديم بذلك الروح نفسه وتلك البغضاء ذاتها اللذين كانا يملآن قلبه منذ وفاة مسز لينتون . . كان لا يفتأ يردد فى فكره تلك العبارة المريرة : « كان يمكن أن تظل على قيد الحياة حتى الآن . . لولا ما فعله بها » فكان هيكليف يبدو فى عينيه قاتلا مسنكا . . ولكن من كائى — التى لم تعرف من انواع الشرور سوى اماعيلها الصغرة القافهة ، من العصيان او المسف او الانفعال الناجمة عن طبعها العامى ، وطيشها الصياني . . والتى كانت تدم عليها يوم حدوثها — ذهلت واستبدت بها الدهشة من هذا « القلب الأسود » الذى يستطيع أن يجنى الحقد والضعفنة ، وينطوى على نية الانتقام كل هذه السفين ، ويتابع تدبير الخطط فى صبر وعزم دون أن يلم به شبح من تأنيب الضمير ! . . وبدت من التأثر والضيق بهذا المظهر الجديد من مظاهر الطبيعة البشرية — وهو شئ لم يسبق لها أن قرأت عنه فى دراساتها ، أو خطر ببالها حتى الآن — بحيث فضل مستر ادجار أن يكف عن متابعة الكلام فى هذا الموضوع ، فاكثفى بأن ينهى الحديث بقوله :

— سوف تعرفين فيما بعد ، يا عزيزتى ، لماذا أود أن تتجنبى منزل هذا الرجل وعائلته . . أما الآن ، فعودى إلى مشاغلك وملاهيك السابقة ، ولا تفكرى فيهم بعد ذلك قط . .

.. لقد كان يتوقع أن يرانى ثانية غدا ، ولكنه سوف يصاب بخيبة أمل شديدة .. وسوف يطول انتظاره عبثا ..

— هراء ! .. فبل تحسبنيته يفكر فيك بمثل تفكيرك فيه ؟
.. أليس لديه رفيق هو هيرتون ؟ .. انك لا تجددين واحدا في المائة من الناس يبكي فقد قريب له لم يره أكثر من مرتين في أمسيتين متباعدين ! .. وسوف يدرك لينتون حقيقة الأمر ولا يشغل نفسه بالتفكير فيك بعد ذلك ..

فاستوت قائمة ، وهى تقول :

— ولكن هل لى أن اكتب إليه رقعة صغيرة أبين له فيها السبب في عدم حضوري ، وأرسل له معها هذه الكتب التى وعدته بإعارتها له ؟ .. إن كتبه ليست في مثل طراة ككتبى ، وكان يظلف على الحصول عليها عندما حدثته عن جمالها وما فيها من بهجة وتسلية .. هل يمكننى أن اكتب إليه يا ايلين ؟ ..

فأجبتها في حزم :

— محال أن يحدث ذلك .. ولن يحدث قط .. تكئين إليه ، فيكتب إليك ، ثم لا يقف الأمر بعد ذلك عند حد ؟ .. كلا يامس كاثرين .. أن هذه الصلة يجب أن تقطع نهائيا ، وهكذا يتوقع أبوك منك ، وسوف أعمل على تنفيذ مشيئته ..

نبدأت تلح من جديد ، وقد اكتست أسارىرها بطابع التوسل والرجاء :

— ولكن يمكن لرسالة صغيرة واحدة أن ..

غير أنى قاطعتها في صرامة :

— صه ! .. إننا لن نعود إلى الحديث عن رسائلك العنيرة .. هيا إلى الفراش !

عندئذ رمقتنى بنظرة تقطر سماء ، حتى لقد بلغ من أثرها في نفسى أننى لم أقبل في بادئ الأمر على تقبيلها كعادتى كل مساء . واكتفيت بإحكام الغطاء فوقها ، ثم أغلقت عليها الباب وقد ركبني هم عظيم .. ولكنى ترددت في منتصف الطريق ، ونذمت على مسلكي ، فعدت إليها في هدوء .. ويا للمفاجأة ! .. كانت الأنسة تقف بجوار المخضدة وأمامها قطعة من الورق الأبيض ، وفي يدها قلم من الرصاص أسرعت بإخفائه عند دخولى . وهى تشعر بذنبها .. وعندئذ بادرتها قائلة :

— انك لن تجدى من يحمل هذه الرسالة يا كاثرين ، لو استطعت كتابتها .. ولكنى الآن سوف أطلقى الشمعة وأدعك في الظلام ..

وعندما مددت يدي بقصبة الإطفاء

المعلقة ، تلقيت لطفة شديدة على يدي ، وسعيتا ترمج -
في سخط « أيتها الشريرة ! » .. ولكني لم ألق إلى الأمر
بالا ، وغادرت الحجرة في سكون .. وعندئذ أوصت الخلاج
في عنف شديد ، وقد تملكها نوبة من نوبات النزق
والمشاكسة المألوفة منها ..

ومع ذلك فقد انتهت رسالتها وبعثت بها إلى المرسل إليه
مع غلام لبنان كان يحضر من القرية إلى « الجرائح » .. ولكني
لم أعلم ذلك إلا بعد انقضاء بعض الوقت .. فقد مرت
الأسابيع « واستمادت كائي مرحها وانشراحها » وإن كانت قد
غدت مولعة « إلى حد عجب بالتسلل إلى الأركان والانفراد
بنفسها .. وكنت إذا اقتربت منها فجأة ، وهي مستغرقة
في القراءة ، أجدّها تجفل وتضم الكتاب إلى صدرها كأنها
تحاول إخفاءه ، وغالبا ما كنت ألمح أطراف أوراق منفصلة
تطل من بين صفحات الكتاب .. بل لقد اتخذت لنفسها عادة
جديدة ، وهي التبكير في مغادرة حجرتي والنزول إلى المطبخ
حيث تظل تحوم حوله كأنها تنتظر وصول شيء لا أدري كنهه ..

وكان لها في إحدى خزائن المكتبة درج صغير تظل تعبت
بمحتوياته ساعات طويلة وتحرص كل الحرص على أخذ
مفتاحه معها كلما انصرفت عنه .. تحدث ذات يوم ، بينما
كانت منهكة في التنقيب في درجها ، أن حانت مني نظيرة

إلى الدرج « غلذا بلعينا التي كانت تملؤه قد اختفت وحلت
محلها بضعة من الأوراق المطوية .. قثار فضولي .. بل
وشكوكي « وعولت على أن ألقى نظرة على كنوزها الخفية ..
وهكذا ما كادت هي والسيد ياويان إلى حجرتيهما ذات ليلة ،
حتى رحت أبحث بين مناتحي حتى وجدت منها واحدا
يفتح قفل ذلك الدرج ، ففتحته وأفرغت محتوياته جميعا
في مبدعي « ثم أخذتها إلى حجرتي لأفحصها على مهل ،
وفي مأمن من المفاجأة .. ومع أنني كنت أرتاب في الأمر
إلى حد ما ، فقد كانت دهشتي بالغة إذ تبينت في تلك
القصاصات مجموعة من الرسائل - لابد أنها كانت يومية
تقريبا - من لينتون هينكليف ، كان معظمها ردودا على رسائل
بعثت بها إليه .. وكانت الرسائل الأولى مقتضبة يبدو فيها
التعثر ، ولكنها ما لبثت أن تحولت تدريجيا إلى رسائل غرام
غزيرة العاطفة ، مليئة بالسذاجة التي تبررها سن كتابتها ،
وإن كان بعضها ، مع ذلك ، يحوى لمسات رائعة ايقنت أنه
استعارها من مصدر أوفر خبرة وحسنا .. وراعني أن
ألقيت بعضها خليطا بالغ الغرابة من الحرارة والصراحة ،
يبدأ بالمشاعر القوية وينتهي بالعاطفة المشبوبة ، في ذلك
النوع من الكلمات التي قد يستخدمها طالب حدث في مناجاة
حبسية روحانية من حوريات السماء ! .. وليست أدري إن
كانت هذه الرسائل قد انشبت كائي وأرضيت ساعيرها ..

ولكنها كانت في نظري من سقط المتاع ! .. وبعد أن قلبت فيها حتى اكتشيت ، جمعتها في منديل أختيته عندي . ثم عدت فأوصدت الدرج على خواء ..

ونزلت سيدتي الصغيرة مبكرة ، على عاداتها ، وأخذت تحوم حول المطبخ . فرحت أرقبها من طرف خفي حتى رايتها تذهب إلى الباب ، في اللحظة التي قدم فيها غلام صبيغ معين .. وبينما كانت الخادمة تملا له قدر اللبن . رأيت كائي تدس شيئاً في جيب سترته . وتلتقط شيئاً آخر من الجيب نفسه ، في حركة سريعة خفية .. فتسللت ودرت حول المنزل إلى الحديقة ، وتربصت للرسول : الذي راح يدافع في نضال المستهين عن وديعته . حتى انسكب اللبن على الأرض أثناء صراعه معي . ولكني أفلحت أخيراً في تنزاع الرسالة منه ، وأذرت به سوء العاقبة إذا لم يمخى إلى منزله قدماً لا يلوى على شيء .. ثم انزويت بجوار الجدار ورحت اقرأ رسالة مس كائي الغرامية في إيمان ، فوجدتها أشد بساطة وأعظم بلاغة من رسائل ابن عمها .. كانت رسالة رائعة ، والحق يقال : على رغم الحماسة التي كانت تنضج بها .. فهزرت رأسي وكررت عائدة إلى المنزل أقلب وجوه الراي في هذا الأمر ..

وكان اليوم مطيراً ، فلم تستطع كائي القيام بنزهتها المعتادة

في البستان .. وهكذا ما كادت تفرغ من دروس الصباح : حتى لجأت إلى الدرج المعهود تنشد فيه تسلية .. وكان أبوها جالساً إلى جوار المائدة منهمكاً في القراءة ، أما أنا فقد تعمدت الاشتغال برتق أهداب ستائر النافذة . ورحت أرتب حركاتها بعين لا تغفل ..

وما من طائر عاد إلى عشه ليحده خاوياً وقد عاشت نفسه يد عدو أئيم . بعد أن كان قد تركه مليئاً بأفراح صغار تشيع فيه البهجة بزقزقتها الصداحة ، بمستطيع أن يعبر عن اليأس القاتل والحزن المرير : في صرخاته وخفقات أجنحته . بأكثر مما فعلت كائي بتلك الشبهة الواحدة التي انطلقت من صدرها ، وذلك التحول الفجائي الذي اعتري أسرارها التسعيدة غلبها تبديلاً هائلاً مروعا ..

ترفع مستر ليتنون رأسه وهتف بها قائلاً :

— ماذا حدث يا حبيبتي ؟ .. هل جرحت نفسك ؟ ..

فنهجت من لهجه ونظرت أنه لم يكن مكتشف ذخريها ، غطت لاهثة :

— كلا يا أبي .. لا شيء .. أيلين ! .. أيلين ! .. تعالى معي إلى الطابق العلوي غائياً مريضة !

غلبت دعوتها وصحبته إلى خارج المكتبة ، فما كدنا تبلغ
البهو العلوى ونوصد الباب خلفنا حتى هوت على ركبتيها ،
وهتفت قائلة :

— أواه يا ايلين ! .. أنت التى أخذتني .. آه .. رديها
إلى ، ولن افعل ذلك مرة أخرى .. لن افعل ذلك أبدا ..
ولكن لا تخبرى أبى .. أنك لم تخبرى أبى يا ايلين ؟ ..
قولى أنك لم تخبريه بالأمر ! .. لقد كنت مغرطة فى الحماقة .
ولكنى لن افعل ذلك بعد الآن قط !

فخاطبتها فى رصانة وحزم وطلبت إليها أن تنبض قائمة .
ثم قلت :

— إذن فقد مضيت فى هذا الأمر شأواً بعيداً فى الخفاء .
كما يبدو الآن يا مس كاثرين ! .. لقد كان الأجدر بك أن
تخلى منها ، فلا تطلبها ثانية ! .. فباليا من حزمة لطيفة
من التفاهات تلك التى تقضين ساعات فراغك فى دراستها
وحفظها ! .. ولماذا ؟ .. إنها خليفة بأن تطيع وتنتشر ! ..
وماذا تحسبين السيد يرى فيها عندما أنثرها تحت نافطريه ؟
.. إننى لم أطلعها عليها بعد ، ولكنى لا أخالك تظنين لحظة
أننى سوف أحفظ أسرارك المضحكة هذه ! .. يا للعار ! ..
لا بد أنك أنت التى خطوت الخطوة الأولى فى تبادل هذه

السخافات ، غائى موقنة من أن الفتى ليس خليفاً بالتفكير فى
مبادئك بها !

فراحت تنسجج بالبكاء وقد انسحق قلبها ، وهى تقول :

— إننى لم افعل .. لم افعل شيئاً من ذلك .. ولم انسجر
يوماً واحداً فى حبه قبل أن ..

فقاطعتها صائحة بكل ما وسعنى من الاستنكار والازدراء :

— حبه ! .. ما شاء الله ! .. اتقولين « حبه » ؟ .. وهل
سمع أحد بشيء كهذا ؟ .. أن فى وسعنى أن أجاريك فأتحدث
عن حبه الطحان الذى يحضر مرة كل عام ليشتري منا الغلال !
.. ما أجمله من حب ، حقاً ! .. أنك لم تقضى من حياتك
فى المرتين اللتين رأيت فيها لينتون أكثر من أربع ساعات !
.. فكيف تتكلمين عن الحب إذن ؟ .. هذه هى نفاهااتك
المسيبانية ، وسوف أذهب بها إلى المكتبة ، وسأرى ما الذى
يقوله أبوك عن مثل هذا الحب !

غويبت على بدى لتنتزع منى كنزها الثمين ، ولكنى رفعتها
إلى ما فوق رأسى ، وعندئذ بدأت فى فيض من التوسلات
التي انطلقت من غمها فى حرارة ولهفة ، راجية منى أن أحرق
الرسائل أو افعل بها أى شيء إلا أن أطلع أباه عليها .. وإذا
كنت فى الحقيقة أميل إلى زجرها وتعنيفها بملى إلى
الضحك منها (لأننى كنت أقدر أن الأمر كله لا يعدو نزع
الفتيات الصفار وغرورهن) فقد تظاهرت بالتفكير فى الأمر
برهة ، ثم سألتها قائلة :

— إذا رضيت بحرقها ، فقل تعدينتي وعدا صادقاً - لا تبعثي إليه أو تتلقى منه رسائل أو كتباً - لأنني أرى أنك قد أرسلت إليه بعض الكتب - أو خلاصات شعر أو خواتم أو لعباً ..

فصاحت كاثارين وقد ططعت الكبرياء على خجلها :

— إننا لا نتبادل اللعب !

— أو أى شيء آخر يا سيدتي العزيزة إذن .. ومسوف أذهب إلى أبيك الآن ما لم تبدلي لى هذا الوعد نوا ..

نهفتت قائلة وهى تتشبث بثوبى :

— إننى أعدك يا ايلين .. نهباً ضعيها فى النار .. هيا .. هيا ..

ولكنى عندما شرعت فى المساح مكان بين قطع الفحم بمحرك النار ، كانت التفحفية أكثر من أن تطبق الفتاة أحنال الأمها ، فراححت تتوسل إلى بأن أبقى على واحدة أو اثنتين من الرسائل ، قائلة وقد نهزق قلبها :

— واحدة أو اثنتين فقط يا ايلين ، من أجل خاطر لينتون : ولكنى مضيت فى مهمتى الأليمة ، ففتحت ركن المنديل وبدأت أسقط الرسائل فى النار واحدة بعد الأخرى ، والسنة للألب تعلق فى المدفأة اقواساً ..

فصرخت كاثارين ودمعت يدها وسط التران فأخرجت بعض الأوراق التى لم تجهز النار عليها واحترقت أطرافها فحسب ، غير مبالية بما يصيب أصابعها من تحريق ، وعمر نصيح بى :

— سوف أحفظ بواحدة أيتها القاسية الشريرة !

ماعدت الرسائل الباقية فى يدي إلى المتديل ، وهمت بأن أخطو نحو الباب قائلة :

— حسناً جداً .. ما زال لدى ما أريه لأبيك ..

عندئذ افرغت فى الموقد ما كانت تطوى عليه يدها من أوراق مسودة الأطراف ، وراحت تستحشى على إنهاء هذه المنيحة سريعاً .. فلما فرغت من هذه المهمة جعلت أحرك الرماد لأجهز عليه .. ثم غطيته بهاء مجرفة من كتل الفحم .. أما هى فقد انسحبت إلى حجرتها الخاصة وقد أطبقت شفتيها دون أن تنبس بكلمة واحدة ، وبدا عليها الشعور بما نالها من إهانة فادحة ..

ونزلت لأخبر السيد أن ما أصاب الأنسة من توعك قد زال تماماً ، وأننى رأيت من الخير لها أن ترقد فى فراشها قليلاً ..

ولم تنزل للغداء .. ولكنها ظهرت ثانية وقت تناول الشاي ، فإذا بها شديدة الامتقاع وقد أحمرت جفونها .. إلا أنهما كانت محتفظة بهدوئها الفاضلى إلى حد يثير الإعجاب ..

وفى صباح اليوم التالى توليت أجابة على الرسالة برقعة صغيرة قلت فيها :

« المرجو من السيد هيثكليف ألا يبعث بشيء من الرسائل إلى مس ليتون بعد الآن : لأنها لن تتسلمها .. »

ومن ذلك الوقت أصبح صبي اللبان يأتى بجيوب خاوية ..

الفصل الثانى والعشرون

مر عيد القديس ميخائيل ، واخذ الصيف يستحث خطاه راحلا ، والخريف يقبل مبكرا .. ولكن الحصاد كان متأخرا فى ذلك العام ، وبقيت قلة من حقولنا لم يتم حصادها بعد .. وكان مستر لينتون وابنته يخرجان كثيرا للتجول بين عمال الحصاد ، فكانتا يبقيان معهم ، فى مراحل الحصاد الأخيرة ، حتى الغسق .. وكان الجو فى تلك الأمسيات رطباً شديدا البرودة ، حتى أصيب سيدى بيرد شديداً سكن رثيبه وأبى الرحيل عنها ، كضيف ثقيل ، واضطره إلى بلالزمة الدار طيلة الشتاء لم يبرحها خلاله قط ..

أما كاثى المسكينة ، التى تملك الروع قلبها من مغامرتها الصغيرة ، فقد ازدادت حزنا ووجوما منذ أن اضطرت إلى التخلي عن الاستمرار فيها ، فكان أبوها يلح عليها فى الإقلال من القراءة ، والإكثار من الخروج للنزهة .. وإذ كانت قد حرمت رفقة ه فقد وجدت لزاما على أن أعوضها عن هذا الحرمان — على قدر الإمكان — بصحبتى ليا .. ولكن هيهات أن أسد الفراغ الذى خلفه ، فلم يكن فى وسعى أن أنزعج من مشاغلى اليومية الكثيرة إلا ساعتين أو ثلاثا أكرسها لمراغبتها .. ومع ذلك كان من الجلى أنها كانت أقل ارتياحا إلى رفقتى عنها إلى صحبة ألبيا ..

وبعد ظهر يوم من أواخر أكتوبر أو أوائل نوفمبر — وكان يوما مطيرا ، للعشب فيه وللممرات خفيف ووسوسة .

بمعنهما أوراق الشجر الجافة الندية ، وللسماء الزرقاء الباردة فيه لقنعة من السحب الكثيفة كأنها سفن عظيمة تشق عباب السماء مصعدة من الأفق الغربى ، ومنذرة بحمولة من المطر الغزير — رجوت سيدتى الصغيرة أن تعدل عن جولتها ، لتقتى من هطول الأمطار كالسيول ، ولكنها رفضت وأمعنت فى الرفض .. فخرجت معها على مضض ، بعد أن تسربت بمعطف كبير وحملت مظلتى ، وصحبتهما فى السير حتى نهاية الحديقة ، وهى نزهة جافة متكلفة كانت تقوم بها عادة إذا انحرف مزاجها ، وكانت تبدو كذلك كلما اشتدت العلة بمسمر أذجار وساعت حاله عن المعتاد .. وما كان ليبروح لنا بذلك قط ، وإنما هو أمر نكدسه — كاثى وأنا — كلما طال صيته ولاحت الكتابة والانقباض فى أساريره .. ومضت تسير فى خطى حزينة متبيلة ، لا تجرى ولا تلتف كعادتها ، ورغم أن الرياح الباردة كانت خفيفة بأن تغريبا بالأمديو والتوثب .. وكنت أرمقها من طرف خفى ، فالأحظ بين الحين والآخر أنها ترفع يدها لتمسح شيئا عن وجنتها .. فرجعت أتطلع حولى باحثة عن شيء أغريها به لأسرى عذابا وأخرجها من لجة تفكيرها الحزين .. وكان على أحد جانبي الطريق مرتفع وعز تناثرت فيه بضعة من أشجار البندق والبلوط الضامرة وقد تعرى شطر من جذورها ، وأخذت قترنج غير مستقرة فى مواضعها .. وكانت التربة فى ذلك المرتفع من الزخاوة بحيث لم تحتمل أشجار البلوط ، فانحنى معظمها ، تحت دفع الرياح الشديدة ، ومال على الأرض فى وضع أفقى .. وكانت من كثرين ، فى أيام الصيف ، تجد لونها يمتلئ بجذوع

هذه الأشجار ، والجلوس بين أغصانها ، تتأرجح على ارتفاع
عشرين قدما من الأرض .. وكنت أبنيح كلها رايت خفتها
ورشاقتها ومرحها الصباني وليوها المتبعث عن قلب خال
من الهموم ، إلا أنني ، في الوقت نفسه ، كنت أجد من الأوفق
أن أوجه لها اللوم كلما خبطتها على هذا الارتفاع ، فكنت أفعل
ذلك في لهجة تدرك منها أنه ليس ثمة ما يضطرها إلى
الهبوط ! .. كانت تظل منذ تناول الغذاء حتى ساعة الشاي
مضطجعة في أرجوحنها التي يهزها النسيم ، لا تفعل شيئا
سوى الترنم بالأغاني القديمة - أهاريح الطفولة التي كنت
أهددها بها - أو مراقبة الطيور في أعشاشها ومشاهدة
الآب والأم صاحبي العشي وهما يطعمان أفراخهما ويفرياتها
على الطيران ، أو تستكن في استرخاء ، مطبقة الجفون ،
يتداولها التفكير وأحلام البقطة ، ملأى بسعادة تقصر الكلمات
من وصفها ..

وأشرت إلى غجوة صغيرة بين جذور شجرة ملتوية .
وصحت قائلة :

- انظري يا أنسة ! .. إن الشتاء لم يحل هنا بعد ..
فهذه زهرة صغيرة فوق المرتفع هناك ، هي آخر براعم زهور
الليالك التي كانت تكسو السفح كله في شهر يوليو بغلالة
زرقاء رائعة الجمال .. غيل لك أن تتسلقي البضبة
وتقطفها ، لتريها لأبيك !

فراحت كائي تحديق النظر طويلا في الزهرة الوحيدة التي
كانت تهتز في عثاها الأرضي ، قبل أن تجيب أخيرا :

- كلا .. لن أمسها ؟ .. ولكنها تبدو حزينة مكتئبة ..
لا ترينها كذلك يا ايلين ؟

- نعم .. غيى أشسبه بك طهارة وتحولا .. أما ترين
وجنتيك الشاحبتين كأنها خاليتان من الدماء ؟ .. هاتني
يدك في يدي ودعينا نجر معا ، فإنك اليوم من الأعياء
بحيث أحسبني قادرة على مجاراتك !
فلم تزد على أن قالت : كلا ..

واستمرت تمشي على ميل ، وهي تتلصقا هنا وهناك لتأمل
قطعة من الطحلب : أو خصلة من العشب الجاف ، أو ثمرة
من الفطر بشع لونها البرتقالي الفاتح بين أكوام أوراق
الشجر الجافة السبراء .. وكانت ترفع يدها ، بين الحين
والآخر ، إلى وجهها ، وهي تشيح به بعيدا عن انظاري ..
فدنوت منها ، وأحطت كنفها بساعدي ، وسالتها قائلة :

كاثرين .. لماذا تبكين يا حبيبتي ؟ .. ما ينبغي لك أن
تبكي لأن أباك أصيب بالبرد .. واحمدى الله أنه لم يمرض
بما هو أسوأ من ذلك ..

فنددت أطلقت لدموعها العنان ، ولم تعد تعدد إلى إخفاها
عني ، وقد اختنق صوتها وأنفاسها بنشيج متتابع ، وهي
تجيبني :

- آه ! .. سوف يصبح مرضه أسوأ بكثير .. وماذا ترينني
مأصلة إذا ذهب أبي ، وذهبت أنت ، وخلفتني وحدي في

العالم لا .. إننى لا أستطيع أن أنسى كلماتك يا أيلين ، غابتها لا تكف عن البرنين فى أذنى .. فكيف تتبدل حباتى ، وكىم يصبح العالم موحشا مخيفا أمامى . عندما يحين أجل أبى ، وتذكرك المنية أنت الأخرى !

فاجبتها :

— لكل أجل كتاب ! .. ومن يدرى ، فقد تموتين قبلنا ! .. من الخطأ أن يتعجل المرء السوء قبل وقوعه ! .. ندعينا نرجو أن تفتقى أعوام وأعوام قبل أن يذهب أحدهنا .. إن السيد ما زال شابا ، وأنا لم أتجاوز الخامسة والأربعين وما زلت قوية سليمة ، كما أن والدتى عاشت حتى الثمانين ، وظلت محتفلة بمرحها ونشاطها إلى النهاية ! .. وإذا فرضنا أن مسرر لينتون عاش حتى يبلغ الستين من عمره ، فإن الأموات الباقية أكثر من التى انقضت من همرك يا آنسة ، ومن المسخف أن تحزننى على مصيبة لن تحل إلا بعد عشرين عاما أو تزيد !

فقطلعت إلى فى نظرات يمشى فيها الأمل على استحياء ، كأنها تنشد فى كلماتى المزيد من الحلمانية والعزاء ، وغمقت تقول :

— ولكن عمتى إيزابيلا كانت أصغر من أبى ..

— إن عمك إيزابيلا لم تجد من يعنى بقربها مثلك ومثلى .. ولم تلق من أسباب السعادة ، مثلما يلقي السيد ، كما لم يكن لديها ما يثير فيها حب الحياة والرغبة فى العيش

.. إن كل ما يلزمك ، يا عزيزتى ، هو أن تحسنى رعاية أهلك ، وأن تشيعى المرح والبهجة فى نفسه بأن يراك دائما مرحة مبتهجة ، وأن تتجنبى إثارة القلق فى نفسه من أمة ناحية .. فاذكرى ذلك ياكاشى ولا تنسيه ! .. ولا أخفى عنك أنك قد تقطينه بطيشك واندفاعك فى عاطفة حقاء خيالية نحو ابن شخص يسره أن يرى أباك مؤسدا فى قبره ، أو إذا أظهرت له أنك تذويبن حزنا وأسى بسبب غراق رأى من صالحك أن يفرضه عليك ..

فاجابت قائلة :

— إننى لا احزن لشيء على وجه الأرض إلا لمرض أبى .. ولا أبالى بأى شيء بجانب أبى .. ولن افعل شيئا البتة — مطلقا — لن افعل شيئا أو أقول كلمة واحدة تضايقه ، ما دمت محتفلة بجميع حواسى .. إننى أحبه أكثر من نفسى يا أيلين .. وقد عرفت ذلك مما افعله كل ليلة من الصلاة والدعاء بأن أعيش بعده ، لأننى أوثر أن اتعذب وأشقى لفقدته ، على أن يشقى ويتعذب إذا توفائى الله قبله .. أفلا يدل ذلك على أننى أحبه أكثر من حبنى لنفسى !

— ما أجمل هذه الكلمات ! .. ولكن الأعمال أيضا يجب أن تثبت شعورك هذا .. وأرجو أن تذكرى ، عندما تتحسن صحتك ، تلك القرارات التى اتخذتها فى ساعات الخوف والتوجس ..

وكنا ، أثناء حديثنا ، قد اخترنا من باب موصد يؤدي إلى الطريق خارج الحديقة .. وكانت السيدة الشابة قد استعادت مرجحها وإثراقها ثانية - غسقت الجدار وجلست على قمة السور . وأخذت تميل إلى الخارج لتلتقط بعض الثمار النابتة وسط زهور أشجار الورد البري القرمزية ، التي تظل جانب الطريق .. كانت الثمار السفلى قد اختفت ، أما العليا فلم يكن يستطیع الاقتراب منها . غر الطيور وحدها ، إلا من يتخذ موضع كائي الحالى .. وبينما كانت تميل لجذبها نحوها سقطت قبعتها في الطريق ، فاقترحت أن تهبط زاحفة من فوق السور لتستعيدها . نظرا لأن الباب كان موصدا .. ورجسوتها أن تكون حذرة حتى لا تقع . وسرعان ما اختفت عن الانظار في خفة وسرعة .. ولكن العودة لم تكن بمثل هذه السهولة ، إذ كان الجدار أملس مصقولا ، جيد الللاء ، خلوا من أى نتوء أو متكا . كما أن غروع شجيرات الورد الرخوة ، وأغصان شجيرات الخيط الشاردة ، كانت لا تقوى على أداء أية معونة عند تسلق الجدار .. أما أنا فلم انتبه إلى ذلك ، لغفلتى وحمقى . حتى سمعتها تضحك قائلة :

— سوف تضطرين إلى إحضار المفتاح يا ايلين ، أو اضطر إلى الانطلاق عدوا حتى كوخ الحارس .. فليس في استطاعتى تسلق السور من هنا ..

— ابقى حيث أنت .. أن في جيبي ربطة مفاتيح لعمل فيها ما يفتح هذا الباب ، وإلا ذهبت لإحضار المفتاح ..

وأخفت كائرين تتسلى بالقضاء والرقص أمام الباب ريثما مضيت أجرب المفاتيح واحدا بعد الآخر ، ولكنى بلغت آخرها دون أن أجد بينها ما يطابق قفل الباب .. غادعت عليها رغبتى بأن تبقى مكانها ، وكنت على وشك أن أهرع نحو الدار بأسرع ما في طاقتي عندما بلغ سامعى صوت جعلنى أجمد في مكاني ، وكان ذلك وقع حوافر جواد يقترب مسرعا .. وتوقفت كائي عن الرقص كذلك ، فسألتها بصوت خفيض :

— من هذا ؟

وإذا برفيقتى تهمس في لهفة بالغة :

— ايلين .. ليك تستطيعين فتح الباب سريعا !

عندئذ انبعث صوت عميق (هو صوت راكب الجواد) يصبح قائلا :

— مهلا يا مس لينتون ! .. شد ما يسرنى أن أراك .. ولكن لا تتمعجلي الدخول ، فإن هناك إيضاحا أود أن أسألك عنه وتجيبينى عليه ..

مأجابه قائلة :

— إنى لن أخاطبك يا مستر هيكليف ، فإن أبى يقول إنك رجل شرير تهتكه وتمقتنى معا ! .. وقد أبيت ايلين ذلك ..

فقال هينكليف (وكان هو نفسه القادم) :

— لا شأن لذلك بالفرض الذى أحدثك من أحله .. إبنى لا أمقت ابنى ، على الأقل .. والأمر الذى أود أن أسقرعى انتباهك إليه إنما يخصه هو .. نعم .. يحق لك أن يحصر وجهك خجلا ! .. ألم تكونى ، منذ شهرين أو ثلاثة ، تكتبين إلى لينتون كل يوم ؟ .. أكنت تتخذين من الحب بلية ومسللة إذن ؟ .. إنكما ، كلاكما ، تستحقان الجلد بالسياط جزاء وفاقا ، وخصوصا أنت ، لأنك أكبر سنا ، وأبلد شعورا ، كما وضع فيها بعد ! .. ولكنى حصلت على خطابتك ، وسوف أبعث بها إلى أبيك إذا لم تمرى كلامى أذنا واعية ، أو أبيت استهانة بما أقول .. إبنى أحسبك ملكت هذه اللعبة ، فأنصرفت عنها .. ليس كذلك ؟ .. حسنا .. إنك عندما طرحتها عنك ، طرحت لينتون معها فى هوة من اليأس والتنوط ! .. لقد كان جادا ، لا لاهيا ولا عابثا ، فأحبك حقا .. والحقيقة الواقعة « كوجودى على قيد الحياة أمامك » أنه على وشك الموت من أجلك ، وقد سحق قلبه — حقا لا مجازا — غدرك وتقلب أهوائك .. ومع أن هيرتون ظل طوال الأسابيع الستة الأخيرة يمازحه ويلاعبه ليسرى عنه ، وعلى الرغم من أننى اتخذت نحوه تدابير أكثر صرامة ، وحاولت أن أخيفه وأروعه ليدع حقه وغفلته ، فإنه يزداد سوءا يوما بعد يوم ، وسوف

يتقيه الثرى قبل الصيف المقبل ، إلا إذا انتقته وأعدت إليه الحياة !

فصحت من وراء الباب قائلة :

— كيف يمكن لك أن تكذب على الطفلة المسكينة بهذه الجراة ؟ .. امض لشأنك بالله عليك ! .. فليست أدري كيف تخلق عن عمد هذه الترهات الخسيسة ! .. سوف أحطم القفل بحجر ، يا مس كاشى ، فلا تصدقنى كلمة من هذا الهراء الخبيث .. وقد أدركت بنفسك أن من المستحيل أن يموت أحد غراما بشخص غريب عنه ..

فغمغم الشقى الذى انكشف أمره ، قائلا :

— لم أكن أعلم أن هناك جواسيس يسترقون السمع ! .. أهذه أنت يا مسز دين العظيمة ؟ .. إبنى أحبك ، ولكنى لا أحب نفاقك يا ذات الوجبين !

ثم استعطرد يقول بصوت عال :

— وكيف يمكن لك « أنت » أن تكذبى على « الطفلة المسكينة » بهذه الجراة ، فتؤكدى لها أننى أبغضها ، وتخترعى لها من قصص الغيلان ما يخيفها منى وينفرها من بيتى ؟ .. اسمعى يا بقيقى العزيزة ، يا كاثارين لينتون ، وهذا الاسم بالذات يبعث الدماء حارة فى عروقى ، سوف أغيب عن منزلى طوال

هذا الأسبوع .. فاذهبى لترى بنفسك انتى لم أخبرك إلا صدقا .. اذهبى يا عزيزتى ! .. بل عليك أن تتخلى والدك فى مكانى ، ولينتون فى مكانك ، ثم فكرى بعد ذلك كيف تكون نظرتك إلى حبيبك الجحود ، إذا أبى أن يخطو خطوة واحدة لوأساتك ، بينما أبوك نفسه يرجوه ويستعطفه ! .. ولا تنعى فى هذا الخطأ نفسه لا لشيء سوى الغياء والحق .. إننى أقسم لك بخلاص روحى ، إنه يسير نحو القبر سيرا حثيثا ، وليس من يستطيع إنقاذه سواك ..

وتهاوى القفل تحت طرقاتى فاندفعت خارجة ، بينما كان هيثكليف يتابع كلامه لها ، وهو يحدجنى بنظرة صارمة ، قائلا :
— أقسم لك إن لينتون مشرف على الموت حقا ، وإن الحزن والحسرة سوف يعجلان بنهايته المحتومة ! .. وأنت يا نللى ، إذا كنت مصرة على منعها من الذهاب ، فامضى إلى هناك بنفسك لقرية بعينيك .. إننى لن أرجع من رحلتى إلا فى مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل ، ولا أحسب أن سيدك نفسه يطاوعه قلبه على منعها من زيارة ابن عمها !

نقلت لكاثرين : « تعالى معى » .

وكننت قد أمسكت بذراعها وأنا لا أكاد أجراها إلى الداخل جرا ، بعد أن رأيتها تتلصقا مترددة ، وتطلع إلى وجه محدثها بعينين يملؤهما القلق والانشغال ، بينما كانت أمأريه

الجامدة من الصرامة بحيث تخفى خداعه ولؤمه .. وما ليث ان دفع بجواده إلى جانبها ، ومال فوقه نحوها ، قائلا :

— إننى اعترف لك يا مس كاثرين بأن صبرى قد نُسِدت من لينتون وحالته ، كما ضاق به هيرتون وجوزيف ذرعا ، واعترف لك أيضا بأنه يعيش فى وسط سمته الفظاظة والخسونة .. وأنه يذوى سريعا لحرمانه من العطف والحب .. لذلك فإن كلمة رقيقة منك سوف تكون خير دواء له .. فلا تلقى بالا إلى تحذيرات مسز دين القاسية ، بل كونى رقيقة كريمة ، واسعى إلى رؤيته .. فإلك تترابين له فى أحلامه بالليل والنهار ، وهو لا يتخلى عن عقيدته بأنك تكرهينه ، بعد أن امتنعت عن زيارته والكتابة إليه ..

فأغلقت الباب ودرجت وراءه حجرا ليدعنه بعد أن تحطم قفله ، ثم نشرت مظلتى وجذبت وديمقى تحتها ، إذ بدا المطر يتساقط علينا من بين غروع الأشجار الشجبة الآنين ، نذيرة لنا بالا نتوانى فى الخارج حتى لا تناجشنا سيوله المنهرة .. وكان إسراعنا وتلففنا على العودة للدار يمتعاننا من التعليق على هذا اللقاء غير المتوقع مع هيثكليف ، ولكننى تكهنت ، بإلهام من غريزتى ، بأن قلب كاثرين كان ملبسا بغيوم الظلمات الكثيفة .. وكان الحزن والأسى يطبعان أساريرها يطابع غريب

بدلها تبديلا ، حتى لقد أنكرتها .. وكان من الجلى أنها صدقت كل كلمة وكل حرف مما سمعته ..

ووجدنا السيد قد أوى إلى حجرته قبل عودتنا ، فسللت كاشي إليها لتسال عن حالته ، غالفته مستغرقا في النوم ، وعندئذ عادت لتطلب منى أن اجلس معها في المكتبة .. وتناولنا الشاي معا « فلما فرغنا منه استلقت على البساط ، وطلبت منى الا اتكلم ، زاعمة أنها متعبة مرهقة .. فأخذت كتابا وتظاهرت بالقراءة .. وما أن حسيتني مستغرقة فيها ، حتى بدأت بكاءها الصامت الذي يبدو انه أصبح الآن مسلاتها المضلة ! .. وتركتها تسرى عن نفسها برهة ، ثم اندفعت في مقاب طويل ، محاولة تسفيه أقوال مستر هيكليف وهزاعمه عن ابنه ، والسخرية منها ، كأنها حسبت أنها ستوافقتي .. ولكن والسفاه ! .. فلم تكن لى تلك المهارة وذلاقة اللسان الخليفة بأن تزيل عن نفسها الأثر الذي أحدثته روايته .. وكان ذلك ما يرمى إليه تماما ..

وأجابتني أخيرا :

— ربما كنت علي حق يا نللى ، ولكنى لن أحس بالراحة قط حتى أعرف الحقيقة ولا بد لى من أن أخبر لينتون بأنه لم يكن لى ذنب فى امتناعى عن الكتابة إليه ، وأن اتعنه باننى لن اتغير عن عهد قط ..

فما جدوى الغضب والاحتجاج إزاء سذاجتها الحمقاء ، وسلامة نيتها البلهاء ؟ ..

لقد افترقنا تلك الليلة على غير وفاق .. ولكن اليوم القالى شهيدنى على الطريق إلى « مرتفعات ويدرنج » ، مهرولة بجانب مهر سيدتى العنيدة .. فلم يكن فى وسعى ان أطيق رؤيتها حزينة ، وأن أحتمل مرأى وجهها الشاحب ومينيها المقروحتين بالبكاء .. ورضخت لرغبتها ، وقد تراوحتنى أمل واه بأن يثبت لها لينتون نفسه ، عند استقباله لنا ، مبلغ ما فى الرواية من كذب وبهتان ..

شهادة كبرى على كذبها



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزى القارئ :

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن في كل شيء تقريباً : تشابهن في نبوغهن الأدبي ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن في خلودهن بعد الموت . . وهكذا اقتصر اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنساني : وكان نصيب صغراهن « أن برونتى » من هذا الإنتاج رواية (أجنسى جرائ) ، التي تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات وذريح) . أقول إنهن تشابهن في ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفي إصابتهم بنفس المرض الذي قضى على ثلاثتهن بالتعاقب - وهو مرض السل أو التدرن الرئوى - فماتت به « شارلوت » في سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ - ١٨٥٥) ، وماتت به « إميلي » في سن الثلاثين (١٨١٨ - ١٨٤٨) . ثم ماتت به « أن » في سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ - ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «برونتى» لا تلقف عند هذا الحد ، ونعل هذه الفواجع هي المسئولة عن الجور القائم الذي تنسم به رواياتهن جميعاً . فقد كانت أسرة برونتى تتألف في الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجعة (هازوت) بانجلترا . . وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماري ، وإليزابيث ، و « شارلوت » ، و « برانويل » (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلي ، وأخيراً « أن » . وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذي يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» في سن السابعة . والصغرى «أن» في عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهي بعد في سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الآخرين ! بعد أربع سنوات أُلحق الأب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» مدرسة داخلية - هي المدرسة الرهيبة التي وصفتها شارلوت في رواية (جين إير) باسم «لوود» .

حامى مراد